

الفصل الرابع

الأبوة هي اللعب مع الطفل

في شهره الثامن عشر، يبدو ليو الصغير ملاكاً حقيقياً، ينطق وجهه بالبهجة والسرور، ومن الواضح أنه يحب ما هو عليه كثيراً، إذ تتجسد مشاعره الحقيقية في حركاته وتصرفاته وصوته وتعاييره بصورة لا لبس فيها. يملأ ليو المكان بهجةً، وينقل عدوى مرحه إلى والديه ومحيطه في جوٍّ من النشوة وال عفوية. شعرت وأنا أراقبه (بأن هذه هي الروعة الحقيقية)، إنه طفل طبيعي رائع لا يمكن مقاومة اللعب معه، وقد شكّلنا في أثناء لعبنا معاً وحدةً متكاملةً تضح بالحياة.

في مركز رعاية الأطفال المحلي، لم يسعني إلا التساؤل عما يكون عليه هذا الطفل الرائع! كان مقدمو الرعاية غارقين في نوبات الضحك وهم يشجعون حركاته المرحية. وشأنه شأن الأطفال في عمره؛ يستمتع ليو بدفع الكراسي وجزّها في الغرفة، ليعيدها إلى مكانها حول الطاولة، يعود مجدداً ليجري حول الأطفال ليثيرهم في صيحات حماسية، يستمر هذا دقائق عدة ليشرق محياه مرةً أخرى، لكنه يستسلم لقسطٍ من الراحة على طاولته قبل أن يعود من جديد. يتغذى الأطفال في هذا السن على التكرار

والحركة، إلا أنّ ليو لديه هوسه الخاص المميّز باللعب، وهو ما يكشف باعتقادي جوهرًا طبيعيًا مبنياً على اللعب، وهو ما من شأنه أن يمكنه - إن استمر ليو على سجيته من دون قيود - من أن يتحول إلى (شخصية هاوية للعب والمرح)، وربما يصبح في المستقبل (مديرًا سعيدًا)!

ما مصدر كلّ هذا الحماس؟ وأين يذهب؟

يفقد معظمنا في مرحلة ما هذه الحماسة، إذ نخرج من مرحلة الطفولة مخلفين (الأشياء الطفولية)، وينتابنا شعور أنّه يجب علينا عدم التصرف على هذا النحو بعد الآن، ونتعمّد الإصابة بفقدان ذاكرتنا بما يخص تجارب لعبنا الجميلة، ربما تُذكرنا مشاهدة حالة مثل حالة ليو المرّح بما خلفناه ورائنا. وإذ أتحدث كثيرًا عن اللعب لدى الأطفال فيجب ألا أغفل القول إنّ التركيز على موضوع اللعب يعود في الغالب للوالدين.

مؤخرًا، جاءت امرأة عقب انتهائي من محاضرة في مكتبة نيويورك العامة للتحدث معي، وبدا لي أنّ ابتهامتها تخفي قلقًا كامنًا؛ أقرت أنني كنتُ مقنعًا في محاضرتي بأهمية اللعب، وهذا ما أثار قلقها على ولديها في العاشرة والثانية عشرة من العمر، فهي تريدهم أن يلعبوا، على ألا يؤثر ذلك في دراستهم وعملهم، ليضمنوا مستقبلًا ناجحًا في الحياة. وعقب تحدثنا معًا عن طبيعة النجاح، أدركت الأم القلقة أنّ ما يقلقها فعليًا هو كيف يصبح أولادها بالغين مسؤولين عن أنفسهم، ممن لديهم منهج حياتي مرح فيستمتعون في حياتهم وفي عملهم الذي يُثيرهم حقًا.

كان واضحًا لي أنّ هذا الأمر مفقود في حياتها هي. كغيرها من الأمهات أرادت السيدة أن تعطي أولادها شيئًا لا تملكه أساسًا، علمًا أنّ

هذه السيدة امرأة ناجحة جداً، وهي شريكة في شركة حمامة رئيسة في نيويورك. لقد قامت بكل الأشياء الصحيحة، والتحقت بأفضل المدارس، وها هي تعترف بخجل أنها ليست على ذاك القدر من السعادة، كما لو كان هذا سرّاً مخجلاً، ومع أنها ترسل أولادها إلى أفضل المدارس، وتلتحقهم بأنسب الأنشطة، إلا أنّ قلقها الحقيقي هو من أن تأخذهم في الطريق الذي اتبعته هي.

تدور أيضاً المحادثات حول اللعب والأطفال باتجاه آخر تماماً، فعندما كنت أشارك في ورش عمل للشركات، كان التركيز على تحسين ابتكار الموظف وترسيخ روح التعاون من خلال فهم روح اللعب، وغالباً ما كان الموظفون يعودون إلي ليبلغوني أنّ انطباعهم الأوّل عن محاضرتي كانت عن كيفية تحسين تفاعلهم مع أطفالهم، ومن ردود الفعل هذه لمست أنّ هؤلاء البالغين أنفسهم لم يدركوا الأمر في البداية بصورة صحيحة، لأنّهم جميعاً يعلمون أن هناك شيئاً خاصاً وجميلاً كان لديهم في الطفولة وقد ذهب الآن، لم يعرفوا أين اختفى ولا كيفية استرجاعه، لكن رغبتهم العميقة هي في إعطاء أولادهم فرصاً للحفاظ عليه.

يكون تهديد اللعب في بعض الحالات أكبر مما كان عليه لدى جيل سابق أو أكثر، فالآباء والأمهات من جيلي، الذين كان لديهم تجربة طفولة حرّة في الحقول أو الغابات، قلقون اليوم من الوقت الطويل الذي يمضيه أطفالهم في ألعاب الفيديو أو في أنشطة (آمنة). ولا شك أنّ الكثيرين قد لاحظوا انتعاش مبيعات (الكتاب الخطر للأولاد (The Dangerous Book for Boys) الذي يروّج للألعاب والأنشطة القاسية والعنيفة

والمثيرة والخطرة، التي كانت سائدةً قبل ألعاب الفيديو والرحلات المنظمة أحياناً والمألوفة في تلك الأيام، إلى ملعب كرة القدم في سن السادسة. لقد طوّرت المدارس خطوطاً عريضةً للحصول على درجاتٍ عاليةٍ في الاختبارات من خلال صقل المهارات وتكثيف الجهود لإعداد الأطفال للمرحلة الجامعية، وقد تقدّم أساليب تلك المدارس للأطفال منظوراً متميّزاً ومتطوراً للحياة، لكنها لا تلغي شعورنا بأنّ هناك نقصاً ما؛ ربما هو الخيال غير المقيّد والحرية.

يتحدث هذا الفصل بصورة اسمية عن اللعب عند الأطفال، إلا أنّ اللعب كامن في كلّ منّا، إذ إنّ كلّ شيء بدأ من الطفولة، الزمن الذي ينهض به اللعب بصورة طبيعية، وهو أساس مسارنا طوال الحياة، وكما استطعنا فهم أنماط اللعب الفريدة للطفولة، يمكننا ملاحظة حقائق طفولتنا وغرضها، يمكننا ذلك بتصوّر المسار الذي سيقودنا إلى السعادة وتحقيق الذات؛ على أنّ مساعدة أطفالنا في اتباع هذا المسار تتطلب منّا تذكّر الحالات العاطفية للعب طفولتنا، والتي توفر الأدلة على الحالة البدائية لنعيم المرح الكامن فينا. وكمثال؛ أذكر هنا تعليمات الطوارئ على متن الطائرات التجارية التي تطلب من البالغين وضع قناع الأكسجين الخاص بهم في حال انخفاض ضغط المقصورة قبل مساعدة أطفالهم، والأمر نفسه ينطبق علينا، فلكي نساعد أطفالنا علينا العودة بذاكرتنا إلى الماضي لاستعادة ذكريات لعبنا القديمة، وبقيامنا بذلك نؤسس لأسرةٍ مرحةٍ، كلّ شيء؛ من التعليم إلى العمل، سيكون أفضل وأكثر نجاحاً.

فإليك آثار اللعب، من خطوات الرضيع التي تعد أساسية حتى السلوك المعقد للعب، وما تأثيره علينا.

اللعب في بداية الحياة

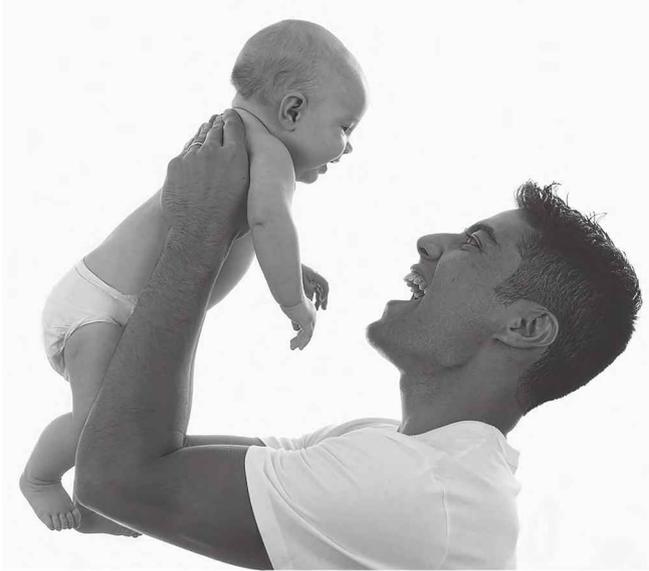
سأتناول هنا آثار اللعب وخطواته لدى الطفل من أبسط سلوك للعب إلى أكثره تعقيداً، وماذا يفعل لنا، وكيف يؤثر فينا.

يبدأ اللعب تأثيره في الطفل قبل الولادة، على الأقل بصورة غير مباشرة، إذ يمضي الإنسان ثلاثة أرباع العام في الرحم خلافاً لمعظم الحيوانات، ويخرج عند الولادة جنيناً أشبه بمخلوقٍ عاجزٍ، ويكون هذا الجنين في بداية الحمل كما نهايته عرضةً لمؤثراتٍ قويةٍ تراوح بين تغذية الأم وصولاً إلى مستويات توترها. ففي الرحم تتشكل الدارات العصبية، وهي الدارات التي ستحدد أنماط الدماغ لبقية حياتنا. يمكن أن يساعد لعب الأم الحامل في خفض مستويات توترها، ويقلل من مضايقات الحمل، كما في تشكيل دماغ الطفل داخلها، وقد يمتد تأثير بيئة ما بعد الولادة لأجيال عدة. يبدو الأمر مذهلاً، إلا أن دراسات (شتاء الجوع) الهولندي خلال الحرب العالمية الثانية بيّنت أن معدل ذكاء المرء وخطر إصابته بأمراض القلب، وغيرها من المشكلات الصحية، ذات علاقة بالتغذية الجيدة لجذته من جهة أمه خلال الربع الثالث من الحمل.

أظهر الباحثون أيضاً أن حركات الجنين؛ من ركل ولكم وتلوّ، ما هي إلا تعبير واضح عن برنامج اللعب، وقد تبدو حركات عشوائية إلا أن الجهاز العصبي يولدها كوسيلة لتشكيل اتصالات عاملة بين الأطراف والدماغ، وهذا يساعد الطفل بمجرد ولادته إضافةً إلى سلوكيات للعب العشوائية المظهر على استكشاف العالم.

تناغم

إذا كان هناك أمان وتغذية جيدة للطفل في الشهر الثالث أو الرابع بعد الولادة، وكانت حالة الأم الانفعالية منفتحةً وهادئةً، فإنّ التقاء نظرات الوالدين بنظرة الطفل يوّلد التقاءً متناغمًا للأدمغة، فعندما يحدق بعضهم في عيون بعض يشع الطفل بابتسامةٍ مقنعةٍ، وتستجيب الأم تلقائيًا بموجةٍ عاطفيةٍ ملؤها المرح الجسدي واللفظي وترد الابتسامة له، يغمغم هو ببعض الأصوات أو يضحك بسعادة، وتكون استجابة الأم بصوتها الإيقاعي الرخيم؛ إنه أمر عالمي عابر لجميع الثقافات عبر العالم.



لكن ما يحدث في الدماغ مذهل أكثر بكثير؛ إذ يصاحب إغماض عين كل من الأم وطفلها في الحالة السابقة تزامنٌ للنشاط العصبي في القشرة

اليمنى من الدماغ، وإذا ما وصلنا الأم بالطفل، وأخذنا مخططاً كهربائياً للدماغ (EEG) فسنجد مزامنةً لتيارات الدماغ، وهو ما يسمى (تتاغماً)؛ إذ تزداد إيقاعات الدماغ في تتاغم لتشكل نوعاً من التلاحم الدماغي، وهو شكل من أشكال الحميمية النقية. يختبر الآباء هذا أيضاً مع أطفالهم لكن حدوثه شائع أكثر بين الأم وطفلها.

يختبر الوالدان بحدوث هذا التتاغم اتحاداً مرححاً، وأجد من ملاحظتي أنها الحالة الأساسية للعب، وأنها اللبنة الأولى لحالات أكثر تعقيداً للعب، والتي ننخرط بها في جميع مراحل حياتنا. اكتشف آلان شور (Allan Schore) وهو باحث في جامعة كاليفورنيا (UCLA)، ورائد في دمج النظرية الاجتماعية والبيولوجية والتحليل النفسي، أن التتاغم (الذي يُدعى أيضاً بالترابط) أمر حاسم للتنظيم العاطفي الذاتي، ويعاني الأطفال الذين يتعرضون لسوء معاملة والذين لم يختبروا هذا التتاغم بصورة كافية، هشاشةً عاطفيةً ومزاجية حادة.

تلقى الآثار المترتبة على بحث شور وارتباطه ببحوث أخرى مهمة حول التنمية البشرية، ما تستحقه من اهتمام؛ على سبيل المثال: يجد الطفل الذي لا يختبر التتاغم بسبب الحرمان أو سوء المعاملة صعوبةً في تشكيل صداقاتٍ صحيةٍ، ولهذا انعكاسات لاحقة على قدرات البالغ في التحكم بتوتره، ويؤثر على الأرجح في كفاءة عمل المهام التنظيمية العاطفية، التي يُعتقد أنها تحصل في قشرة الفص الجبهي الأيمن (غير المسيطر).

تقع الفصوص الجبهية اليسرى واليمنى أمام المراكز الحركية، وتتشط في مجال دمج صنع القرار المعرفي والتنفيذي. يتطور الجانب

الأيمن من الدماغ بسرعة أكبر من الأيسر، وهو أكثر عرضة للضرر الناجم عن الحرمان المبكر، ويُعد ضروريًا للأنشطة التنظيمية العاطفية اللاحقة وكذا لاتخاذ القرارات المصيرية والأحكام الاجتماعية، ولو افترضنا أنّ النماذج العصبية للعب الحيوانات تنطبق علينا، فسيحفظ التناغم (وهو الحالة الأساسية للعب) الطفل في مرحلة النمو من الموجات العاطفية الكبيرة، وسيساعد على انسجام الإشارات الوراثية التي تتحكم في نمو الدماغ خلال الطفولة والمراهقة والشباب.

الجسم ولعب الحركة

يبدأ الأطفال باللعب لفهم أجسامهم في وقت مبكر جدًا، وكما ذكرت، يبدأ برنامج اللعب بصورة فعلية في الرحم، وما إن يولدوا حتى يكملوا رغبتهم في الحركة والتلويح بأيديهم، وبأسرع ما يمكن لهم التحرك على أيديهم وركبهم في عمر ثلاثة أشهر إلى تسعة، يتعلمون كيف يتحركون ثم كيف يزحفون، يضعون الأشياء في أفواههم ويحركونها في لعابهم، يحركون الطعام في فمهم بوساطة أسننتهم، يمصونها ويصقونها خارجًا، ويتمتعون بهذه الحركة كثيرًا. وفيما بعد، قد يقذفون بلقيمات الطعام بوساطة ملاحظهم في أنحاء الغرفة؛ هذه ليست حركات عشوائية، بل سلوكيات غريزية أساسية تشجع الاستكشاف والتعلم، ثم تصبح الكلمات الأولى التي ينطقونها مفهومةً، ويستخدم الأطفال الذين يولدون ضعاف السمع حركات اللعب لتعلم كيفية التواصل جسديًا، ألفاظ بسيطة مع حركات بسيطة مقابلة لها، والتي تصبح ببطء لغة إشارة بسيطة عندما يرد عليها الكبار دائمًا بإشارات.

إنَّ الحركة أمر أساسي، وهي ترافق جميع عناصر اللعب التي ندرسها، حتى الكلمة والصورة في اللعب التخيلي، إذا لم نفهم ونقدّر حركة الإنسان فإننا لن نفهم أنفسنا أو نلعب. وتسهم معرفتنا بحركتنا الذاتية في إنشاء معرفة شخصية للعالم، إنها وسيلة للمعرفة، فمن خلال اللعب الحركي يتحرك تفكيرنا. تشكّل الحركة معرفتنا بالعالم والمكان وعلاقاتنا بالآخرين، إنَّ مصطلحات الحركة والمكان والزمان مركزية تماماً بالنسبة إلينا، حتى إننا نحتاج إلى التوقف قليلاً (استعارة حركية) لنُدرك حجم تفكيرنا في هذه الشروط. تركز معرفتنا للعالم المادي على الحركة، وهو ما يفسر لنا وصفنا لانفعالاتنا بمصطلحات مثل (قريبة) أو (بعيدة) أو (منفتحة) أو (منغلقة)، نقول إننا (نقبل) الأفكار، أو (نتصارع) معها، أو (نرتبك) بسببها.

ينير اللعب الحركي الدماغ، ويساعد على التعلم والابتكار، ويعزز المرونة والقدرة على التكيف، وتتطلب هذه الجوانب المركزية للطبيعة البشرية إعطاء الحركة حقها التام، ولهذا؛ عندما يجد شخص ما صعوبة في الانخراط في حالة لعب، اطلب منه القيام بشيء ما ينطوي على الحركة؛ لأنَّ اللعب الجسدي أمر عالمي، وكما يقول بوب فاجن: «تملاً الحركة القلب الخاوي».

تنبثق المسرّات الناجمة عن اللعب لأجل ذاتها، حيث تقترن هذه المسرّات بحركات الجسم الاستكشافية والتكلم الإيقاعي المبكر (الحيال الصوتية المتحركة) والنشاط الحركي والمتاوب، إن كل تلك الأمور ممتعة ومرحة في جوهرها، كما أنَّها تساعد على تشكيل الدماغ. كشفت

دراسة للباحث جون بايرز (John Byers) أجراها على الطباء وحيوانات أخرى، أنّ أوقات اللعب الأعظم لديها تتوافق مع الأوقات نفسها التي يحدث فيها أسرع نمو لمنطقة من الدماغ تُدعى بالمخيخ، وإذا تُبُطُّ نشاط الطباء خلال تلك الأوقات فسيحصل انخفاض كبير في نمو الخلايا العصبية في المخيخ، وعليه؛ ترسخت قناعة أن تعزيز العديد من المناطق النامية في الدماغ يحصل عن طريق التحفيز المخيخي. إنّها قفزة علمية كبيرة، إلا أنّ البحوث لم تتحقق من صحتها بصورة كاملة حتى الآن، وكما ذُكر أنّها فإنّه من المنطقي أن يُعاد الآن تقييم وظائف المخيخ من قبل علماء الأعصاب؛ إذ تُؤكّد الأدلة المتزايدة دور المخيخ المستمر (خاصة خلال أوقات النمو الأعظم) في المهارات الحركية والعقلية للبشر، وكلاهما مطلوب لظهور لغة بشرية طليقة.

اللعب بالأشياء

يُعد الفضول حول ماهية (الأشياء)، وكذلك التعامل معها، أمراً سائداً ونمطاً فطرياً من أنماط اللعب، وهو يشكّل في حد ذاته (حالة) (نمطاً جوهرياً) من المرح، ففي عمر مبكر تصبح الملاعق أو حلقات التسنين أو الأطعمة أشياءً للعب، وتكشف ألعاب الطفل الصغير في شهره الخامس عشر تقريباً خصائص شخصية للغاية، وكلما تطورت مهارات استخدام الأدوات (مثل الضرب على المقلاة، أو تخطي الصخور) كانت دارات الدماغ أغنى. نجد متعةً في الجزء الجسدي من اللعب بالأشياء، في تجميع أحجية، أو ركل كرة باتجاه المرمى، أو قذف حشوة أوراق في سلة

المهمات. وكما اكتشف مديرو مختبر الدفع النفاث، فإنَّ اللعب باليدين يُنتج دماغًا أفضل ملاءمة لفهم وحلّ المشكلات من جميع الأنواع.

اللعب التخيليّ

ربما يكون الخيال أقوى قدرةٍ بشريةٍ، لأنّه يتيح لنا خلق واقع متصوّر يمكننا استكشافه دون التخلي عن الوصول إلى العالم الحقيقي، ويأتي الدليل الأوّل على اللعب التخيلي في عمر السنتين تقريباً على شكل القصص المجتزأة. يصف الباحث المتخصص باللعب بريان سميث ساتون (Brian Sutton-Smith) هذه المحاولات المبكرة على أنّها قصص جزئية تركز على سخافة أو هراء من دون عناصر القصة المعروفة من بداية ووسط ونهاية، ثم مع النمو يكتسب الأطفال القدرة على إنشاء سرد متكامل. وتحدث حقيقة ابتكار القصص من قبل الأطفال في جميع أنحاء العالم، وهي جزء لا يتجزأ من لعبهم، لكن مهما كان السن أو درجة اكتمال القصة، فإنّ هناك متعة شفوية كبيرة بنسج راوي القصة لخيوط قصته.

بعد ذلك، ينخرط الأطفال في اللعب التخيلي في كثيرٍ من الأحيان، فينتقلون بكل تلقائية وحيوية بين الواقع والخيال، وبكلّ حرية، فينخرطون في تخيلٍ وتصديق المغامرات عند الاستماع أو المشاهدة، على خلاف البالغين الذين يعلقون على تمييز الواقع من الخيال أهميةً كبيرةً.

ومع تقدم الأطفال بالسن، يصبح الخط الفاصل بين ما هو خيال وما هو واقع أكثر صلابةً، لكن اللعب التخيلي يستمر في تغذية الروح،

وكما ناقشت في وقت سابق فإنّ الفحص الدقيق لتيار الوعي لدى الكبار أظهر أن هناك جانباً لمعالجة ثنائية الواقع والخيال مستمراً على مدى الحياة بالنسبة إلى فكر الإنسان؛ نستمر في حبك خطوط القصة في رؤوسنا للحفاظ على سياق الماضي والحاضر والمستقبل. ولأنّ الأطفال يباشرون مغامرة جديدة في حياتهم كل ساعة، فإنهم يستخدمون دوافعهم التخيلية للحفاظ على التناغم والأنسجام العاطفي والمعرفي الذي يغذي نمو كينونتهم.

لا يزال الخيال مفتاح الإبداع والمرونة الانفعالية في جميع مراحل الحياة، وقد أظهرت دراسات الحرمان أنّ تخيّل الحياة الداخلية للآخرين، ومقارنتها بحياتنا، واحدة من طرق تطوير التعاطف والتفاهم والثقة بالآخرين وتعزيز مهارات التكيف الشخصية.

اللعب الاجتماعي

يحتل اللعب الاجتماعي مكانةً كبيرةً في السلوك البشري، من لعبة الاختباء السريع (بيكابوو peekaboo) إلى الحفلات الراقصة الرسمية، فالبشر كائنات اجتماعية، واللعب هو وقود الكفاءة الاجتماعية. يسمح اللعب للمجتمع بالعمل وتشكيل العلاقات الفردية بين العديد من الناس لتزدهر. وفيما يأتي بعض الأنواع الفرعية المعروفة للعب الاجتماعي؛ مثل: الصداقة والانتماء، واللعب الخشن، واللعب الاحتفالي والطقسي.



1. الصداقة والانتماء

كما سبق أن ذكرت، يبدأ الأطفال اللعب الاجتماعي مع الأطفال الآخرين من خلال اللعب (المتناظر)؛ حيث يجلس الطفلان أحدهما مقابل الآخر، سواء ألعباً بالرمل كان أم بالماء أم بأقلام التلوين أم بالمكعبات، فيكتسبان الوعي بحضور كل منهما، لكن لا يتفاعلا مباشرةً أو عاطفياً معاً. يُعد هذا اللعب جسراً للعب تشاركي وتعاوني أعمق؛ يؤهل اللعب المتناظر الأطفال لتعرف الجار الآخر ليصبح جزءاً من لعبتهم.

وفي الوقت الذي يبلغون فيه من العمر أربع إلى خمس سنوات يصبح اللعب المتبادل وسيلةً تعزز التعاطف مع الآخرين، وخلال طرحهم لعناصرهم الخيالية في لعبهم يستمع الأطفال لمساهمات أصدقائهم، ويتوصلون لفهم وجهات النظر الأخرى؛ يعد اللعب المتبادل هذا الحالة الأساسية للصداقة التي تستمر مدى الحياة، وبهذا يكون الأخذ والعطاء مع نقل عدوى الحماس من مميزات اللعب المتبادل الصحي.

2. اللبب الخشن

أظهرت البحوث المتعلقة باللعب الخشن عند الحيوانات والبشر ضرورته لتطور الوعي الاجتماعي والتعاون والنزاهة والإيثار، وكذلك الحفاظ عليه. عمومًا، لا تُقدَّر طبيعة هذا اللبب وأهميته بالشكل الصحيح، خاصةً من قبل مدرّسي مرحلة ما قبل المدرسة أو الوالدين القلقين، اللذين غالبًا ما ينظران إلى سلوك اللبب الخشن على أنه ليس حالةً من اللبب بل شكل من أشكال الفوضى التي يجب ضبطها، وذلك لما يتضمنه من ضرب ومصارعة وإيقاع الآخر على الأرض (يتم كل ذلك مع ابتسامة بين الأصدقاء الذين سيقون أصدقاء).

يعيق نقص الخبرة بما يتعلق باللعب الخشن الأخذ والعطاء التقليدي والضروري للسيطرة الاجتماعية، وهو مرتبط بضعف السيطرة على الدوافع العنيفة في وقت لاحق. وقد وجدنا في أثناء دراسة حالات القتلة الشباب في ولاية تكساس منذ سنوات عديدة غيابًا للعب الخشن في مطلع حياتهم مقارنةً بالشباب العاديين الذين قابلناهم بمعايير الدراسة نفسها. ومنذ ذلك الحين، تدعم التجارب والدراسات أهمية هذا النوع من اللبب؛ من تجارب اللبب الخشن على الفئران، إلى دراسات أنتوني بيليجريني (Anthony Pelligrini) المستفيضة على اللبب، وسنوات جو فروست (Joe Frost) الثلاثة والثمانين من المراقبة على مروج الملاعب، وملاحظاتي الشخصية على هذا الشكل من اللبب من خلال العديد من المراجعات السريرية. لقد أظهر بيليجريني أن اللبب الخشن يختلف مع

تقدّم العمر، وتكشف دراساته أنّ الأنشطة المبكّرة مثل المطاردات قد يكون لها صلة بحدّ مشكلات اجتماعية لاحقة، في حين يساعد الاستغلال العدائي الذي يحدث عادةً في وقتٍ لاحقٍ على حسن التصرف في مسائل السيطرة والتنافس.

أما جوفروست (Joe Frost) فهو أستاذ فخري في التعليم في جامعة تكساس، وتتعدد دراساته في جميع المجالات، وكان لمشاركته الفاعلة في إضافة ميزات لتصميم الملاعب صدى واسع ومثمر، وقد درس فروست هذه الملاعب للأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة مروراً بعمر الثانية عشرة، وكان لأكثر من ثمانية وثلاثين عاماً المبتكر في تنظيم ملعب كبير مزوّد بالعديد من خيارات اللعب الحرّ في مدرسة المخلص (Redeemer School) في أوستن. وقد استطاع بفضل المراقبة، وفرص اللعب التي وفرها، ملاحظة الفوائد المستمرة مدى الحياة التي تنشأ نتيجة أماكن اللعب؛ إذ تقدّم فروست للأطفال الصغار البيئات التي تعزز اللعب الاستكشافي المتدرج، مع أمكنة تحرّض اللعب الحرّ المفعم بالحياة والحرية والألعاب العفوية، بحيث استطاع أن يختبر اللعب الخشن والألعاب العفوية بسهولة. وقد أنشأ أيضاً مساحة لعب وارفة الخضرة مجاورة لتلك التقليدية، وهي منطقة ذات أشجار ونباتات مخصصة للعب المنفرد. وعلى الرغم من أنّ ملاحظاته انطباعية، فإنّها تستند إلى ملاحظات ومراقبة منتظمة على مدى زمني طويل مع متابعة حثيثة، ولدى فروست آراء قوية حول قيمة اللعب الخشن لتوفير القاعدة الضرورية والمهمة لنجاح تنشئة اجتماعية تعاونية.

يُعد اللعب الخشن برأي فروست لعباً ودياً أو لعباً قتالياً، وقد يتوسع على نطاق أوسع إلى أي لعب نشط يشمل احتكاكاً جسدياً بين الأطفال. وعملياً قد تصح تسمية هذا اللعب بلعب البطل الممتاز، وهو ناتج عن الإعجاب بالشخصيات التلفازية، حيث ينتحل الأطفال في المدارس أدوار (الأخيار) و(الأشرار)، ويتقمصون تلك الشخصيات عن طريق الجري والمطاردة وممارسة الكارتيه الوهمي، أو تقمص شخصيات مثل ملك الجبل. ويعد اللعب الخشن منذ ظهوره في مرحلة الطفولة تكاملياً في الطبيعة، إذ يتضمن في البداية اللعب الرمزي الأولي والألعاب المنظمة، ثم يتوسع عبر الزمن إلى أشكال أكثر تطوراً، ويأخذ صفة الألعاب الرياضية المنظمة مع التجربة والعمر.

يلاحظ فروست أنه «لا يميّز الكثير من البالغين، بمن فيهم المدرسون، بين اللعب القتالي والمشاجرة العدوانية الحقيقية، ويحظرون أي شكل من أشكال المصارعة أو الصراخ؛ إذ يظنون أنّها عدوانية»، ويتابع فروست: «إلا أنّ الأطفال يعرفون الفرق بين العدوانية الحقيقية وتلك الودية، وهم ينخرطون في اللعب الخشن بنشاط كبير عندما يُسمح لهم بذلك، ويغيرون طبيعة اللعب بما يليبي حاجة و/أو مطالب زعيم معين ذاتياً».

يتقلص اللعب الجسدي الخشن الصريح مع تقدم العمر، لكن يبقى الانخراط الدائم في الألعاب والرياضات والأنشطة الجماعية، التي تعلّم التحمّل وتعزز التوتر الخلاق، امتداداً طبيعياً لهذا النوع من اللعب.

3. اللعب الاحتفالي والطقسي

لا يحتاج الأطفال إلى مناسبات رسمية لكي يلعبوا، فهم يهيمون باللعب بصورة طبيعية، لكن من المهم ذكر اللعب الاحتفالي والطقسي كواحد من أنواع اللعب الاجتماعي. وقد يكون هذا النوع من اللعب في احتفال عيد ميلاد أو رقص أو عشاء يوم عطلة، أو حضور جولة أخيرة من مباراة كرة قدم. لا يبادر الأطفال في تلك المناسبات بصورة عفوية، لكن تلك التجارب الاجتماعية لها مساهمتها في إنشاء خزانٍ من الذكريات الطيبة، بالإضافة إلى أنها تساعدهم على تطوير شكل اللعب الطقسي في مرحلة البلوغ.

وغالبًا ما تترافق احتفاليات الكبار بلعب احتفالي مثل الاستقبال بعد الزفاف، وفي أحيانٍ كثيرة تكون الطقوس والاحتفالات ضروريةً للبالغين لتوفير ذريعة (رسمية) للعب والحفاظ على نمط اللعب هذا تحت السيطرة الاجتماعية.

قص القصص واللعب السردي

«الرياح تعوي في الخارج، والمطر يجلد السقف. كل ما قالته والدة الطفلة الصغيرة أنها ستغيب بضع دقائق فقط، وها هي الساعات تمضي والليل بظلمته الحالكة يبدو وقتها وكأنه زنزانة. أومضت أنوار وتلاشت سريعًا، وبلغ أذنيها الأنين الرهيب المنطلق من السرايب...»، تُصنّف رواية القصص على أنها وحدة الفهم البشري، وهي تحتل مرتبةً أساسيةً في النمو المبكر وتعرّف العالم والمرء نفسه ومكانه في هذا العالم.

إنَّ إحدى الوظائف المهمة من وظائف نصف الكرة المخية اليسرى المسيطرة اختلاق القصص حول الأسباب التي تجعل الأمور بالشكل التي هي عليه، وهو ما يصبح فهمنا للعالم، وتعد القصص وسيلةً تضع الأجزاء المختلفة من المعلومات في سياقٍ واحدٍ، وتبث درامية القصص الحيوية فينا خلال تقدمنا بالعمر، وتخبّرنا البنية القصصية شيئاً عن كيفية سير الأمور، وكيف ينبغي لها أن تكون، سواء أكان ذلك بالاستماع إلى بيغ بيرد* (Big Bird) يتحدث عن الحياة بانفعال، أو قراءة حكايات بحيرة وويغون (tales of Lake Wobegon) للكاتب الأمريكي غاريسون كيلور (Garrison Keillor).

لا غنى عن القصص للحصول على فهم جيد بعد مرحلة الطفولة، ويقوم الناس باتخاذ أحكامهم حول الصواب والخطأ، حتى في السياسة أو على منصة المحلفين، بناءً على قصةٍ تشكلت لديهم حول الأحداث الحاصلة، وقد تلاحظ خلال قراءتك هذا الكتاب أن القصص عن البحوث أو حالات اللعب تتمتع بجاذبية أكبر من مجرد عرض تلك المعلومات العلمية بصورة مباشرة، كما تبدو أنها تتضمن معلومات أكثر عن علم اللعب من البحوث المباشرة؛ إنها مسألة متعلقة بالطبيعة البشرية لا أكثر.

تتمتع رواية القصص بالقدرة على إنتاج حالة من الخلود والسرور والمشاركة بالنيابة عن شخصياتها، وهو ما يُصنّف السرد والقصص كحالات لعب.

* بيغ بيرد (Big Bird) هو شخصية معروفة في مسلسل شارع سمس التلفازي للأطفال، تقوم بالدور كارول سبينس منذ عام 1969م، وهو طير أصفر بطول ثمانية أقدام. (المترجم)

اللعب الإبداعي والتحويلي التكاملي

يمكن أن يكون اللعب مدخلاً إلى نفسٍ جديدةٍ، نفسٍ أكثر تناعماً مع العالم؛ لأنّ اللعب يقوم على الانخراط بسلوكيات وأفكار جديدة، وهو يحررنا من الأنماط التقليدية المعمول بها. وبالنسبة إلى الأطفال الذين هم في حالةٍ دائمةٍ من التغيّر والتحوّل، يعدّ اللعب التحويلي جزءاً ثابتاً من عالمهم، ويجري دوماً من دون أن يلاحظه أحد.

على أنّه وفي بعض الأحيان يمكن أن يوفر اللعب في حالة الأطفال الذين تقطعت بهم السبل مثلاً واضحاً ومثيراً عن التحوّل. خلال عملية استكمال أفلام سلسلة محطات بي بي إس التعليمية PBS الأمل في اللعب (The Promise of Play)، سُمح لأفراد فريقنا بمتابعة تقدم طفلة ذات تسعة أعوام، تعاني نوعاً من الاكتئاب، وعدم وجود الأصدقاء وعدم اللعب، وتم تخصيص وقت لها في مدرستها للعمل مع مجموعة تُدعى التدخل الإيجابي (Positive Intervention) من خلال اللعب، وقد نظّم الأمر مدرّس مدرّب كعاملج باللعب، راقبنا وصوّرنا الطفلة خلال مدة استمرت لأربعة أشهر. بدأ سلوكها الاجتماعي المنعزل وغير المناسب بالتغيّر تدريجياً، وأخذت تتخرط شيئاً فشيئاً في حالات اللعب الأساسية كالرقص واللعب بالألعاب في بيت الدمى وغيرها، وبدأ مزاجها بالتحسن، حتى إنّه في آخر تصوير غص الفريق بالبكاء حين لعبت بسرور وحرية في الملعب مع أصدقائها (الذين كانوا قد تجنبوها سابقاً بسبب تصرفاتها الانعزالية الغريبة)، وبدت محبةً لمعلميها. لقد غيرّها انخراطها الفعلي في اللعب بصورة تامة، ولم يكن ذلك التغيّر بسبب معلمها، فمن خلال اللعب تغيّرت قصصها الداخلية من خيالات عقيمة وحزينة إلى غنية وجامحة.

عندما نخرط في لعبة الخيال في أي سن، فإننا نعيد تشكيل واقع حياتنا اليومية، ونحصل خلال تلك العملية على أفكار وطرق عيشٍ جديدة؛ وبالنسبة إلى البالغين قد تؤدي أحلام اليقظة إلى طرقٍ جديدةٍ لتسيير الأعمال، وقد تؤدي الخيالات إلى حبٍّ جديدٍ، كما قد يؤدي بنا التصوُّر الخيالي إلى إعادة تنظيم منزلنا أو ابتكارٍ جديدٍ. يأخذ اللعب الإبداعي بعقولنا إلى أماكن لم يسبق لنا أن فكرنا بها، ويمهد الطريق في مسارات جديدة يمكن اتباعها في العالم الحقيقي، كما حدث عندما جاء أينشتاين بنظريته النسبية بعد أن تخيّل نفسه في سيارة مسافرًا بسرعة الضوء، أو كما حدث عندما تتخيّل مجموعة طريفة من المصممين تابعة لشركة IDEO جميع السبل التي يمكنها بواسطتها ابتكار آلة داخلية لتمرير الكلاب، وفي كلتا الحالتين استخدم المبتكرون مرهم للابتكار والإبداع.

تظهر مراحل اللعب هذه بصورة طبيعية في أي أسرة صحية، وتتدفق بعذوبة من داخل الطفل. إن الآباء الذين يقدمون جوًّا من المودة والأمان والمرح يسمحون لدافع اللعب بالتعبير عن نفسه، وإذا لم تكن تلك العناصر موجودةً فإنّ الأطفال سيفتقدون واحدًا أو أكثر من الصيغ الطبيعية للعب؛ وواجبي هنا قد يكون مزعجًا لكنه تنويري لتوثيق هذا الأمر وبصورة صريحة مباشرة.

حياة وموت تشارلز ويطمان

جاءت أوّل دراسة عملية حقيقية لي عن الطالب المسلح المشحون الذي ارتكب أفضع حادثة قتل جماعي في حرم كلية جامعية حتى مجزرة جامعة فرجينيا للتكنولوجيا (Virginia Tech) في عام 2007م.

في صبيحة أحد أيام تكساس الحارّة من شهر آب/ أغسطس 1966م، تسلق طالب هندسة معمارية، يدعى تشارلز ويتمان، برج الحرم الجامعي في جامعة تكساس في أوستن، وفتح النار على الناس في الأسفل. كانت أولى ضحاياه امرأة حاملاً، وبدقة نيرانه قتل ويتمان خمسة عشر شخصاً وجرح واحداً وثلاثين آخرين، قبل أن يرديه قتيلاً رصاص مواطن شجاع وضابط شرطة خارج الخدمة. ووجدت الشرطة لاحقاً أنّ ويتمان قد قتل زوجته ووالدته في اليوم الذي سبق المجزرة.

في تلك الأيام، كنتُ قد عُينت حديثاً أستاذاً مساعداً في الطب النفسي في كلية بايلور للطب (Baylor College of Medicine) في مدينة هيوستن، وبعد حادثة إطلاق النار بوقتٍ قصيرٍ تلقيت اتصالاً من رئيس قسم بايلور للطب النفسي الذي كان في مؤتمر في إسبانيا، وقد اتصل بي عقب اتصال حاكم ولاية تكساس به.

كان محافظ كونالي نفسه قد تعرّض لإطلاق النار ونجا بأعجوبةٍ من الموت في أثناء اغتيال كينيدي، لقد كان في غاية القلق بعد حادثة ويتمان من أن يكون هناك أوزوالد* أو ويتمان مختبئاً خلف كل زاوية شارع. وقد طالب كونالي بإجراء تحقيق فوري لاكتشاف دوافع ويتمان لارتكابه هذه الجريمة، وكيف يمكننا تحديد الأشخاص مثل ويتمان قبل أن يضربوا ضربتهم. خوّل كونالي باستخدام جميع الأموال والموارد اللازمة، من ضمنها طائفة المحافظ للعثور على إجابات، وطلب مني رئيس القسم تولي

* لي هاريز أوزوالد: هو الشخص المتهم بقتل الرئيس الأمريكي جون كينيدي، وقد قُتل بإطلاق النار عليه قبل محاكمته بيومين. (الترجم)

مسؤولية المكوّن النفسي للتحقيق الذي يمكن وصفه بالجزء الأكثر أهمية من التحقيق.

أشارت معظم التكهّنات الفورية (يشمل ذلك تكهّناتي) إلى أنّ مختلاً مهووساً مصاباً بجنون العظمة هو المسؤول عن هذه المجزرة، إلا أنّ تعرّف مطلق النار كان صدمةً لنا. فقد كان ويتمان زوجاً وابناً محبباً وجندياً سابقاً في مشاة البحرية، وكان أصغر الكشافة النسور في تاريخ فتيان الكشافة، وبالتمعن أكثر أدركنا الطبيعة الحقيقية لويتمان وكيف أصبح على هذا النحو.

عندما اجتمع جيش صغير من أعضاء لجنة الشريط الأزرق* بعد انتهاء عملهم الاستكشافي، طلبوا من كلّ تخصص تقديم وجهة نظره، وتشمل التخصصات علم السموم وعلم الأعصاب والأمراض العصبية ودراسة الخط وعلم النفس والطب النفسي وتنفيذ القانون، وفي النهاية أجمعنا جميعاً على استنتاج لم يكن مفاجئاً لمعظمنا، وهو أنّ السيطرة القوية لوالد تشارلي، والتعسف المتواصل بحق والدة تشارلي، كانا العاملين الرئيسيين في تطوّر المشكلات السلوكية لديه، التي أدت في نهاية المطاف إلى ما يُعرف في وسائل الإعلام بمجزرة برج تكساس (Texas Tower Massacre)، لكن التحقيق الشامل في حياة تشارلي بكاملها أظهر عاملاً مفاجئاً لا يُصدق، ذلك أنّه وبعد الكثير من المقابلات المكثّفة مع جميع من دخل حياة تشارلي، تبين بوضوح أنّ نقص اللعب لديه على مدى حياته كان عاملاً مهماً في مرضه النفسي.

* لجنة مستقلة رفيعة المستوى مكوّنة من رجال دولة وخبراء مهمتها التحقيق في بعض المسائل المهمة والمُلحّة. (المترجم).

كيف يكون لنقص اللعب دور مباشر في مشكلاته المستمرة وانهيائه القتال؟ لم يتمكن تشارلي في العديد من منعطفات حياته من الرؤية خارج الصندوق الذي وضعه والده فيه، لم تتوافر له الخيارات المتعددة التي نجدها في الخيال المتدفق الحرّ، وهو أمر يحصل بصورة عفوية في الطفل الطبيعي الآمن، المرح والمهذب، ولم يتح له أن يجربّ التغيّرات المفتوحة التي تبدأ باللعب المتناظر الذي يحصل في مرحلة ما قبل المدرسة، وتوسيع نطاق الأخذ والعطاء الذي توفره مباريات الهواة، ومجموعة الخيارات التي يتيحها اللعب المعقّد.

في منزل تشارلي، لم يسمح جدار السيطرة والخوف بظهور أنماط اللعب العادية، فلم يُسمح لتشارلي باللعب خارجاً مع الأطفال الآخرين، وبدلاً من ذلك أُجبر على البقاء في داخل المنزل، والقيام بشيء (مفيد) مثل العزف على البيانو، وعندما يبتعد تشارلي عن والده، فيكون مع والدته -مثلاً- في متجر البقالة، يبقى الوالد هناك مسيطراً على الأمر برمته بوساطة اللاسلكي العامل على ترددات النطاق المدني (CB radio)، وعندما يأتي أصدقاء العائلة لزيارتهم فإنّ أول شيء يقوم به ويتمان الأب هو وضع تشارلي في الواجهة، طالباً منه عزفاً مرتجلاً على البيانو، أو القيام ببعض الخدع التي علمها الأب لتشارلي.

كانت النتيجة أنّ تشارلي لم يفعل شيئاً من تلقاء نفسه. لقد قابلتُ معلّمي الحضانة التي ترعرع فيها، وقد لاحظوا أنّه حتى عندما كان صغيراً لم يلعب تشارلي بحرية أبداً، كان يراقب ما يفعله الصغار الآخرون ثم يقلدهم، لكنه لم يكن مندمجاً معهم باللعب، كذلك أبلغني كاهن الرعية أنّ تشارلي لم يستطع فهم ماهية الاعتراف لافتقاده إمكانية التحدث عن

شعوره الداخلي السيئ حول أمر ما، كان يتحدث عمّا ينظر إليه الآخرون على أنه أمر سيئ.

ومع نضجه، عانى تشارلي ضعف استجابته للعالم، وظلّ ضمن نطاق طموحات والده؛ يراقبه من كذب، يغلي داخلياً لسنوات من دون أن ينعكس هذا عليه خارجياً، لم يسعفه الحظ بمن يوجهه لكسر سيطرة والده، وهكذا عاش وحدة عاطفية في المدة التي سبقت مجزرة برج تكساس، مثابراً على مسارٍ لا سيطرة له عليه، من دون دافعٍ من رغباته أو احتياجاته الخاصة، ومن دون بدائل؛ كان عمله المستقل الحقيقي (والوحيد) عملاً ذا نطاق ضيقٍ مدمرٍ بتأثيره، لا يعدو كونه محاولةً لكسب بعض الراحة الداخلية بارتكاب القتل والانتحار، وهو ما وصفه جيداً في مذكراته.

تُعد حالة تشارلي مثالاً صارخاً على السيطرة الأبوية المفرطة. يلعب الأطفال الذين يملكون هامش لعب كافياً بصورة طبيعية، ويكفي في هذه الحالة أن يوفرّ الوالدان لهم حاجتهم من الأمان والحماية، ولا يعني السماح للأطفال باللعب غياب تنظيم لوقتهم، إذ يُمكن للعب الحرّ أن يحدث في بيئة منظمة تُشعر الأطفال بالأمان والثقة بأنّ سوءاً لن يصيبه خلال لعبه. ولعلّ أحد أشكال الحرية في تغيير النظام الطبيعي للأشياء تأتي من معرفة إمكانية ترتيبها مرّة أخرى «دعونا نقول إنّ هذه السيارة تستطيع الطيران» أو «فلنرم جميع قطع الليغو* (Legos) في كومة كبيرة

* ليغو: اسم لعبة تركيب، مُصنّعة من قبل شركة ليفو غروب الدنماركية، وهي لبنات على شكل متوازي مستطيلات أو مكعبات، ويأخذ بعضها أشكالاً أخرى مثل أشخاص، وهي مصنوعة من البلاستيك، ويتم تركيبها لبناء أجسام كسيارات أو أبنية. (المترجم).

على الأرض ولنرَ ماذا يمكننا أن نصنع منها»، وقد لا يرغب أطفال مرحلة ما قبل المدرسة في التوقف عن اللعب وترتيب مكان لعبهم، لكن إن قيل لهم كل يوم في الساعة العاشرة صباحًا، وبطريقة هادئة وغير غاضبة، إنَّ الوقت قد حان للترتيب، وتم ذلك الترتيب على شكل لعب، فإنَّهم سيشعرون بمنطق عاطفي للحدود المعقولة، وسيجدون الراحة من خلال هذا الاتساق اليومي.

في الحقيقة، إنَّه ليس من السهل معرفة شخصٍ بارع في موازنة احتياجات الأطفال، لكنه يعارض الحاجة المفرطة للإشراف والحرية أو للنظام والفوضى، لكن صديقتي ميندي أبتون (Mindy Upton) واحدة من هؤلاء المعلمات الرائعات. تدير ميندي حضانة بلوسكاي (Blue Sky) في ولاية كولورادو، ويتمتع الأطفال في هذه المساحة بالتنظيم والحرية الكافيين، وبقدرة ميندي على تحويل أي شيء للعبة، يسود المكان مرح واضح حتى في ترتيب وتنظيف مخلفات اللعب. يوفر المعلمون الجيدون من أمثال ميندي طقوسًا ملهمةً تتناسب مع فصول أو أعمار الأطفال.

ويمكننا ملاحظة أنه في كثير من القبائل يُعهد برعاية الأطفال للجدات، فهن لسن على عجلة من أمرهن كالكبار، وبمقدورهن منح الأطفال الوقت الكافي للتعبير عن أنفسهم، فضلًا عن خبرتهن الكبيرة في وضع حدود السلامة، والأمر موجود حتى في مجتمعاتنا؛ حيث تملك الجدات الوقت للاستماع الحقيقي للأطفال، وبينما ينصب اهتمام الوالدين على قولبة الطفل فيما يظنون أنه مصلحته المثلى، يرى الأجداد فينا الأشخاص الذين سنكونهم لاحقًا، ويساعدوننا بهذه المعرفة على

النمو بصورة صحيحة. وفي هذا السياق أتذكر جدي الذي قاد السيارة بي إلى الريف عندما كنت في العاشرة من عمري، ومن ثم نزل من السيارة لنقوم بتبديل الأماكن، وسمح لي بقيادتها قليلاً. كان يوقظني أحياناً قبل الفجر ليأخذني إلى مدينة صغيرة فنتناول وجبة فطيرة محلاة، لننطلق بعدها إلى حقلٍ ليريني كيفية التعامل الآمن مع البندقية، لقد أيقظ بي حس الاكتشاف والتعجب عندما عرفني على بندقيته نصف الآلية عيار 22، التي لطالما قال إنها «أبقتته على قيد الحياة طوال الشتاء عندما كان فقيراً». كانت البنادق الحقيقية من المحرمات على من في مثل سني، ومع ذلك فقد سمح لي بأن أكون شخصاً يتجاوز حدود توقعات والدي، وعلى الرغم من أن توقعاتهما لم تكن ضيقة بالمجمل، فإنها كانت أضيق من توقعاته بشأنني. ولعل هذا الاهتمام البالغ بالحفيد هو سبب حياتنا المديدة، حيث تمتد بما يكفي لنصبح أجداداً، في حين أن الحيوانات لا تعيش كثيراً بعد انتهاء سنوات إنجابها.

لا تنعدم أهمية اللعب الحرّ بمجرد دخول الأطفال المدرسة، إذ تبقى جميع الأنماط الأخرى المحفّزة للعب بأهميتها الكبيرة للنمو والمرونة والتعلم، وللأسف ينسى الكثيرون هذا، أو يتفادون اللعب في حال الوقوع تحت الضغط الشديد في مسعى تحقيق النجاح، ولا يُمكن عدُّ أي طفل مهمل من هذه الناحية مثلاً ممتازاً، فضمن تحقيق الأطفال الحد الأدنى من التعليم وإن كان هدفاً مثيراً للإعجاب (وضرورياً)، إلا أن النتيجة تكون في الغالب نظاماً يقدّم للطلاب منهجاً يركز على المهارات والتدريبات التعليمية، ويهمل المواد التي يعدّها غير ضرورية، مثل الفنون والموسيقى،

ويشهد على هذا انخفاض أوقات الاستراحة والتربية البدنية، وأحياناً القضاء عليها بحجة التركيز على المواد الضرورية.

يُبين علم أعصاب اللعب عدم صوابية هذا المنهج، خاصةً أن طلاب اليوم ينتظرهم عمل تحكمه المبادرة والإبداع أكثر مما يفضي إليه منهج التعليم الحالي، الذي صُمّم ليُحضر الطلاب للعمل، بمعنى آخر يُعدّون لعمل القرن العشرين، العمل الذي يمكن تسميته بعمل خط التجميع، حيث لا ينبغي للعمال أن يكونوا أذكاء أو مبدعين بقدر ما يجب عليهم وضع القطعة المناسبة في مكانها المناسب.

يشير الباحث جاك بانكسيب (Jaak Panksepp) إلى أنّ حرمان صغار الحيوانات اللعب قد يكون له دور في تأخير أو تعطيل نضج الدماغ، وقد أظهرت بحوثه على الفئران فيما يتعلق بهذا المجال أنّ اللعب يقلل من الاندفاع لدى الفئران المتعرضة لأضرارٍ في فصوص أدمغتها الأمامية، ويُعتقد أنّ هذا النوع من الضرر يُمثل ما يسمى باضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط (ADHD)، حيث يؤثر هذا الاضطراب في الوظائف التنفيذية؛ مثل التحكم الذاتي. أجرى بانكسيب بحوثه على الفئران العادية، وقارن أدمغة تلك الفئران التي خرجت لتوها من جلسة لعب مع أدمغة الفئران المحرومة منه، وقد وجد مع تلميذه نيكي جوردون (Nikki Gordon) دليلاً على أنّ اللعب يزيد التعبير الجيني في الفص الجبهي للعامل التغذوي العصبي الناشئ عن الدماغ (BDNF)، وهو بروتين يُعتقد أنّ له دوراً في نضج الدماغ.

يقول بانكسيب إنّه ومن دون اللعب لا يمكن للتعلم والأداء الاجتماعي الطبيعي والسيطرة على النفس، وغيرها من الوظائف التنفيذية، أن تتضح بصورة صحيحة؛ وقد قاده هذا البحث إلى اقتراح علاقة بين نقص اللعب الخشن واضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط (ADHD)، وفي الحقيقة، واستناداً إلى النتائج التي توصلوا إليها بأنّ (إمكانية اللعب الخشن) تقلل من الاندفاع والمرح المفرط غير الطبيعي للفئران التي تعاني تلقاً في الفص الجبهي، اقترح هو وزملاؤه نظام لعب اجتماعي صاخبٍ قد يكون وسيلةً وحيدةً لمساعدة الأطفال الذين يعانون اضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط (ADHD) بمراحله من خفيف إلى متوسط (وهذا النظام جيد لمن هم عرضة بصورة كبيرة لهذا الاضطراب).

التعلم والذاكرة

يعزز اللعب قابلية التعلم، وهو أمر يدركه الكثير من المعلمين الذين يستخدمون أسلوب التمثيل أو المحاكاة في تدريس مادة صعبة أو يُنظر إليها على أنّها مملة؛ مثلاً يعتقد الأطفال أنّ التاريخ مادة جافة، خاصةً إن أُجبروا على حفظ التواريخ والأسماء، لكن إذا سمحنا لهم بتمثيل أدوار هؤلاء القادة، أو لعب ألعاب دبلوماسية، أو تخيل أنفسهم في تلك الأزمان، فإنّ التاريخ سيحيا لديهم من جديد؛ وبهذا الأسلوب يدرك المعلمون الجيدون متى عليهم استخدام المرح والفكاهة والسخرية وتميرها عبر الدروس، ومن هؤلاء عمي الراحل بروس الذي درّس العلوم والرياضيات في المرحلة المدرسية المتوسطة غريلي بولاية كولورادو، وقد ظهر في اليوم

الأول من الصف مرتدياً صافرة استدعاء البط، وعندما سأله التلاميذ عن السبب، قال هامساً: «إنّه أمر سرّي ذو مفعولٍ سحري!».

وعندما بدأ درس بيئة البط خلال الأسابيع التالية، وهو درس يناقش حياتها وأنماط هجرتها وغيرها، ظل مرتدياً تلك الصفارة دون أن يستخدمها، وفي اليوم الافتتاحي لموسم البط، وضع ابنه خارج الصف مع مجموعة من البط البريِّ المروّض، وبصورة مبالغتة وضع الصافرة على شفثيه ونفخ فيها كمن يعزف على البوق (آآك! آآك! آآك!) وعلى الفور بدأ ابنه بإلقاء البط البري في الصف من خلال النافذة المفتوحة.

وبعد ثلاثين عاماً على تلك الحادثة، لا يزال رئيس مدارس كولورادو وباسيفيك كريست أوتورد باوند (Colorado and Pacific Crest Outward Bound) يتذكر أنماط هجرة البط البري وموطنها الشتوي، والكثير من التفاصيل الأخرى التي سمعها عندما كان طالباً في صف عمي، وهي معلومات يتعلمها التلاميذ الآخرون لكن من معلمين أقل موهبة، ولذلك تصبح مع الزمن طي النسيان.

قد يستهين بعضهم بهذه الطرق بالقول إنّ هؤلاء المعلمين يسلون الطلاب لا أكثر، لكن هل ثمة خطأ في ذلك؟ ما دام أن الطلاب يتعلمون الدروس بصورة جيدة وربما أفضل من الدروس التي تشرح بطرقٍ أخرى. لا يمكن أن يكون اللعب عدواً للتعلم، إنما هو شريك له، فاللعب بالنسبة إلى نمو الدماغ أشبه بالسماذ للأرض، ومن الخطأ ألا نستخدمه.

مع تقدمنا في العمر نوهم أنّ التعلم يجب أن يكون جدياً؛ لأنّ المواد معقدة بحاجة إلى دراسة جدية وعميقة، ولا يناسبها اللعب لأنّه استهانة

بها، ووفق هذا المنظور تصبح تلك المواد وتعلمها مهمةً قاسية ومدمرةً للمعنويات. قد نحب الموسيقى وتلك الأنغام المذهلة التي تخرج من البيانو، لكن يقال لك إنه عليك تعلم جدول السلم الموسيقي أولاً لكي تتعلم العزف عليه، ربما تكون أفضل طريقةً لتقريب مادة معقدة هي اللعب معها! أليس هذا سبب تعلم الأطفال لأنظمة الحاسوب بصورة أسرع بكثير من البالغين؟ فهم ليسوا خائفين من تجربة الأشياء ومعرفة كيفية عملها، في حين يحتاج البالغون إلى منهج واضح لأنهم يخشون التعامل غير الصحيح مع تلك الأجهزة؛ لا يخشى الأطفال الخطأ، وإذا ما ارتكبوه يتعلمون منه وينجحون في المهمة في المرة القادمة.

عندما يقترن التعلم والتذكر باللعب يصبحان ثابتين بصورة أمتن وباستمرارية أكبر، يمكن إثبات هذا الأمر موضوعياً في التجارب على الحيوانات، إلا أنه يبقى فرضيةً معقولةً للبشر، مبنيةً على أساس الأداء والنتائج في كثيرٍ من المواقف التعليمية. ولا شك أن الاستراحة الكافية تقترن بالأداء العالي الذي يتبعها، وهذا واحد من الاستنتاجات الداعمة للعب، ربما يحصل هذا بسبب الانخراط الكامل الذي يتطلبه اللعب. فعند اللعب ينحصر الانتباه في متعة نشاط اللعب، أما تثبيت الذاكرة فيبدو مرتبطاً جداً بالانتباه المركز والاندماج الانفعالي، إضافةً إلى مراكز الإدراك والفهم في الدماغ التي تنتشط باللعب، وكما يقول زميلي ستيفن سيفي (Stephen Sivy)، وهو عالم نفس ومستشار في المعهد الوطني لعلوم اللعب (National Institute for Play Science): «ينير اللعب كل شيء» في أدمغة الفئران في أثناء اللعب، وقد أظهر سيفي كيف تؤثر

أوقات اللعب في مستويات الدماغ من ناحية الجين الورمي سي فوس (c-Fos)، «الجينات المبكرة المتوسطة» التي تعزز استثارة الخلايا العصبية والبقاء على قيد الحياة. لقد فوجئ سي في بحجم تنشيط هذه الجينات في قشرة الفص الجبهي لأدمغة الفئران اللاعبة، وخمن أن اللعب يعزز الاحتفاظ بالمعلومات عن طريق تعزيز الاتصالات بين مناطق الدماغ التي قد تم الارتباط بينها بصورة ضعيفة سابقاً.

ومثال آخر، اختبرت قوة المرح خلال التعلم منذ مدة طويلة من قبل مبدعي شارع سمسم (Sesame Street)، الذي أصبح أطول برنامج تلفزيوني للأطفال في الولايات المتحدة. ففي عام 1969 قررت مجموعة من الأشخاص المهتمين بإنشاء برنامج تلفزيوني تعليمي، تقديم الدروس بالطريقة نفسها التي تباع بها الشركات منتجاتها: فتم إعداد البرنامج في قطاعات قصيرة جذابة وممتعة شبيهة بالإعلانات التجارية، واستخدم معدو البرنامج الفكاهة التي تجذب الأطفال، وجذبت محاكاتهم الساخرة للثقافة الشعبية البالغين أيضاً. وقد أراد المنتجون في البداية أن يكون هناك مقاطع دمي متحركة ومشاهد حيّة من الشارع، لكن التجارب أظهرت أن الجمهور كان أقل اهتماماً بالمشاهد التي تتضمن البشر فقط، وأكثر اهتماماً بوجود البشر والدمى المتحركة معاً، وهو ما استغله معدو البرنامج لتقديم جميع أشكال الرسائل العملية للبالغين دون أن تفقد تلك المشاهد جاذبيتها بالنسبة إلى الأطفال. لقد كان لتمازج الخيال والحقيقة والدروس الأثر الفاعل والناجح لأكثر من أربعة عقود وحتى الآن، جالباً المليارات في مجال الأعمال، ومطلقاً للعديد من الأفلام المميزة

الناجحة، وجاذبًا للضيوف اللامعين من أمثال جوني كاش إلى أمين عام الأمم المتحدة كوفي عنان.

هدايا اللعب

سأورد هنا المشهد الذي عايشه الكثير من الآباء والأمهات في جميع أنحاء العالم مرارًا وتكرارًا؛ إنه عيد الميلاد الثاني أو الثالث، وقد حُضرت الهدية الكبيرة، وسط توقُّ الطفلة أو الطفل لفتح اللعبة واكتشاف الهدية المثالية التي انتقاها الأهل بعناية، ربما هي أروع لعبة في العالم، ولعلها من تلك الألعاب التي يحتاج المرء إلى تسجيل اسمه في قائمة طويلة للحصول عليها، ربما هي سيارة أو دمية ذات أهمية خاصة للوالدين، لطالما تمنوا الحصول عليها في طفولتهم، وقد تكون قطعةً موروثَةً، شاحنة معدنية أو دمية خزفية من ممتلكات الجد أو الجدة؛ تخيّل مدى استياء الأسرة عندما يفضّل صغيرهم الحبيب اللعب بالعبة بدلًا من اللعبة!

يجب ألا يصاب الوالدان بالإحباط، بل عليهما أن يكونا راضيين تمامًا عن هذا التحوّل في الأحداث؛ لأنّه دليل على أنّ طفلهم قد طوّر دافع لعبٍ صحيًّا نابغًا من خيالاته ورغباته، فالعبة تمثّل له قالبًا يحوله بمخيلته إلى أي شيءٍ يريد.

يتعلّم الأطفال في أثناء نموهم من هذا النهج الخيالي للعب، يبدأ ذلك تحت تأثير الآباء والأمهات الذين يعبرون بوضوح عن خيبتهم من عدم لعب طفلهم بهذه اللعبة العظيمة واختياره للعبة عديمة القيمة، وقد يكون ذلك تحت تأثير التسويق الذي تنتهجه وسائل الإعلام، ففي وقت

لاحق يحصل الأطفال على الألعاب القادمة مباشرةً من الأفلام الناجحة أو البرامج التلفزيونية والألعاب المقولبة في أفكارٍ محددةٍ مسبقاً عن شخصياتٍ مشهورةٍ تتطلب طريقةً معينةً للعب بها؛ يمكن أن يسلب هذا النوع من السيناريو المسبق قدرة الطفل على تشكيل قصته الخاصة، فيكتفي بتقليد العبارات والحركات التلفزيونية كما هو متوقع منه، وبذلك تضيع من الطفل فرصة التحليق في عوالم الخيال الواسعة.

يتدفق اللعب المتأصل من دواخلنا، لا يكون تشكيكه أو صياغته من قبل الآخرين، ويتفاعل اللعب الحقيقي مع العالم الخارجي ويندمج فيه، فهو تعبير جوهري عن احتياجات اللاعب ورغباته، وينشأ عن قوة الخيال داخله، إنه جزء من قدرة اللعب على التكيف: فمع القليل من المتعة يدمج اللعب قدراتنا الفيزيولوجية والعاطفية والمعرفية ونكبر من دون أن نعي ذلك تماماً. كما نوفق بين التأثيرات داخلنا، وعندما نشعر بأننا مدفوعون باتجاهين متناقضين تجاه العاطفة وتجاه العقل، يسمح لنا اللعب بإيجاد المسار المتوازن أو الاتجاه الثالث.

وتشير جميع الأدلة إلى أنّ أفضل النتائج للعب تأتي عندما يتدفق اللعب بصورة طبيعية من دواخلنا؛ لأن لعبنا وفق دوافعنا الفطرية قد يكون متوافقاً مع حالة برمجة عصبية تتيح نمواً عصبياً مشبكياً أعظمياً.

وهذا ما يحصل عندما نتبنى القضايا التي تثير اهتمامنا، وهي قضايا لا قدرة لنا بالتعبير عنها منطقياً، إذ إنّ رغباتنا واحتياجاتنا غير مكتملة، ويمنحها اللعب الشكل ويضخ الحياة فيها. يمكن ملاحظة هذه العملية بصورة أسهل في مرحلة الشباب، لكنها تحدث في جميع مراحل

الحياة، نراها في غبطة الصبي الصغير الذي يشاهد شاشة الإطفاء تدوي مسرعةً، ونراها مرّة أخرى وهو يصدر صوتاً شبيهاً لها، يجري بسرعة إلى محطة إطفاء متخيلة ليتناول شاشة إطفاء لعبة، ويخمد حريقاً متخيلاً على أرضية الغرفة.

قد نظن أننا نحضّر أطفالنا للمستقبل عندما ننظم كل وقتهم، وعندما ننقلهم باستمرار من نشاط منظم إلى آخر، بالتأكيد تعزز هذه الأنشطة إلى حدّ ما السلوك المعتمد ثقافياً، فضلاً عن أداء دورنا كأباء جيدين، لكننا في الواقع سلبنا منهم الوقت الضروري لهم لاستكشاف معرفتهم ومواهبهم الأكثر حيويةً، قد نحرّمهم الوصول إلى الدافع الداخلي لنشاطٍ قد يتطوّر ليصبح قوةً دافعةً لحياتهم.

يلعب الأطفال لعباً منظماً ذاتياً، وعلى الأرجح أنّ لمعظم البالغين فوق سن الخامسة والأربعين ذكريات استكشاف أنفسهم باللعب في البرك والحقول أو في شوارع المدينة، وكل ما وجههم به آباؤهم هو ضرورة العودة إلى المنزل قبل حلول الظلام أو تناول العشاء.

بالنسبة إلي كانت مباريات الهواة في شبابي أمراً نموذجياً، من النوع الذي يحصل عفويّاً في الأراضي الفارغة والحدائق العامة في جميع أنحاء البلاد، صحيح أنّها كانت ألعاباً فوضويةً قد لا تنتهي بصورة جيدة، لكن كان لها قواعدها المليئة بالإعاقات والانتكاسات والمرونة، فضلاً عن القواعد المتغيرة، وعلى الرغم من الفوضى الحاصلة في أثناء تلك المباريات والألعاب فإنّها تشتمل على إنصافٍ وهيكليّ شبه شاملٍ متفقٍ عليه. فقد جرت تلك الألعاب بأقل ضررٍ، وبضماناتٍ متعارفٍ عليها، وعلى

الرغم من الضوضاء الصاخبة المصاحبة لها فإن لها جواً مثيراً خالياً من الاعتداءات السافرة.

سمحت لي تلك الألعاب بمعرفة نفسي: المشاكس والحساس والعداء المناور والسريع نسبياً، لكنني لم أكن جريئاً لأعرقل الآخرين، أو شجاعاً بما يكفي للوقوف بوجه زملائي كما كان أخي يفعل، لقد احتجت إلى حمايته وحماية أصدقائه لمواجهة التحدي الذي تنطوي عليه تلك المباريات المحتمة، وقد وفروها لي بكل طواعية، كان الحصول عليها مهماً جداً للعبة وللانتماء لروح الفريق. ما أتذكره الآن بوضوح هو... الشراسة! مع أنّ البكاء لم يكن مستهجناً في حال الإصابة بأذية مثلاً، لكنّ الأنين أو الغش لم يكن مقبولاً، ولا تجوز السخرية من أحد أعضاء الفريق، ولا بأس بها إذا كانت من أعضاء الفريق الآخر، وإذا ما حصل تبادل بين أعضاء الفريقين في وسط اللعبة، فلا عيب في إهانة الشريك السابق كلامياً، ونوقشت المواقف المهمة والحركات العظيمة بعد تلك الألعاب، كان لدينا معجمنا الخاص الذي أتاح لأطفالٍ مثلنا التألّق للحظات تحت نشوة قدراتنا الذاتية.

كنا نتبادل الخبرات، وناقش الحركات غير الصحيحة بصورة واضحة. أعتقد أنّ تلك التجارب الطفولية المنظمة أثرت في قدراتي وتصوراتي كبالغ حول كيفية نموي لأصبح ما أنا عليه، وكانت كذلك بالنسبة إلى الأَوْلاد الآخرين الذين انخرطوا معنا في تلك المباريات، لقد كان دوجي ويفر (Dougie Weaver) نجماً في اللعبة، وقد أصبح لاعباً محترفاً كظهير مساعد، ومن ثم مدرباً رئيساً، والنجم الآخر كان لينني كيث (Linnie Keith) الذي تلاشت قدراته الرياضية مع دخوله

المدرسة الثانوية، إلا أنّ اهتماماته الأكاديمية وطبيعته في حبّ إصلاح الأشياء دفعته إلى مجال طب الأسنان.

وبنظرة إلى الخلف، تظهر تلك الصور المستوحاة من اللعب لي وللآخرين أكثر واقعيةً وثباتاً وتنبؤاً بالحياة القادمة أكثر من أي تجربة أخرى. بالتأكيد للآباء والمعلمين دور محوري، لكن بروز النفس من خلال اللعب أمر جوهري، إنها النفس الأصيلة.

تصبح هذه الأنواع من الأنشطة، للأسف، أكثر ندرةً، وينتقل معظم أطفال الضواحي اليوم من درس موسيقى إلى مدرّس الرياضيات إلى لعبة كرة قدم، ويكون التنظيم والإشراف على كل نشاط من قبل البالغين، وهذا ليس سيئاً بالمجمل، لكنني أظن أنّ العلاقة بين الأطفال والكبار أو الأطفال وآبائهم أقرب بكثير مما كانت عليه في أيامنا، لكن ثمة شيء مهمّ جداً قد فقد أيضاً.

اكتشفت في رحلتي الأخيرة إلى ضواحي شيكاغو والحي القديم أنّه لم يتبقّ الكثير من الأماكن الفارغة ولا مباريات الهواة الصاخبة، في حين تكاثرت الأنشطة الرياضية المراقبة من قبل البالغين، والأطفال وأهاليهم المنهمكون، والكثير من السيارات الجميلة، ضجة شوارع أقل، وهواء أنقى، ومجموعات عرقية مختلطة تملأ مطاعم الرصيف، والعديد من العائلات المتعددة التي تعيش في بيوت الطراز الفكتوري الكبيرة، إنّهُ عالم مختلف عن الذي عرفته في طفولتي. تكلمت إلى بعض الأطفال في الشارع (عندما استطعت العثور على بعضهم، إذ إنّهم كانوا يقفزون من السيارة إلى نشاطهم التالي)، وهم بصورة عامة أكثر سمناً وقدرةً على

التحدث الطليق، وهم حتمًا منكبون على الهواطف الخلوية وأكثر راحةً مع البالغين، أكثر منّا عندما كنا في سنّهم.

من جهة أخرى، أظن أنّ الأطفال في عمر العاشرة أو الحادية عشرة، وحتى عندما يلعبون كرة القدم في ملاعب الدوريات اليوم فإنّهم يخلتقون عالمهم الخاص، وهي مجالات لعب خاصة، قد تبدو وكأنّها أخطاء عندما لا تقع عيننا المدرب عليهم. إنّ تصميم الطبيعة للعب أقوى من أن نردها بأي شكل، سيجدون طرقهم الخاصة للوصول إلى ما يناسبهم من مجتمع خاص بهم، وأنماط تربيّتهم واستقلاليتهم مع الحفاظ على استقلاليتهم. وفي هذا الشأن كتب أحد الصحفيين مؤخرًا عن ضحكة غريبة ارتسمت على وجوه الأولاد في المقعد الخلفي حين نقله أطفاله وأصدقاءهم من نشاط لآخر، وعندما دقق في الأمر وجدهم يتراسلون بوساطة هواتفهم الخلوية بحيث يستطيعون التحدث كما يشاؤون لكن سرًّا، في حضور بالغ بينهم؛ لقد اختلقوا منطقة لعب خاصة بهم بحيث يتواصلون بحرية من دون قيود.

من السهل الشعور بالقلق من الأخطار المحتملة لإنشاء الأولاد عالم اللعب الخاص بهم، يبدأ ذلك بالتساؤل عن فحوى تلك الرسائل النصية، ولماذا لا يريد الأولاد أن أعرف عمّ يتحدثون؟ أي ألفاظ نابية أم كلام فاحش؟ هل هم في صدد إيذاء أحدهم؟ هل سماحي لهم بالتجول بحرية قد يجعلهم يقودون دراجاتهم في طريق السيارات؟ هل سيفرقون في البركة؟ يتعاطون مخدرات؟ هذه هي أنواع الأسئلة التي تدور في خلد الآباء منذ الأزل، ومن المحتمل أن يستمروا في طرحها إلى الأبد، لكن أحد

أوجه أن يكون المرء أمًا أو أبًا هي تعلّم كيفية قبول حدود قدرتنا على جعل أطفالنا آمنين وناجحين وسعداء. نعم، علينا السعي لتحقيق تلك الأشياء مجتمعةً، لكنهم في النهاية سيكبرون ويتعلمون كيف يتكفلون بأنفسهم (هذا ما نأمله جميعاً). يحتاج جميع الآباء والأمهات إلى تعزيز هذا الدافع الداخلي، سيتيح اللعب المقاد من الداخل للأطفال أن يصبحوا آمنين وواثقين بقدرتهم في عالمهم الخاص، وقد تكون هناك أخطار من هذا النوع من اللعب، ويجب الانتباه إلى تلك الأخطار والعمل على تقليصها، لكن علمتني تجربتي الطويلة أنّ محاولة قمع اللعب الحرّ وفرض رقابة صارمة على أنشطة الأطفال وحركتهم قد يشكّل خطرًا أكبر بكثير على مستقبل الأطفال وصحتهم ونجاحهم وسعادتهم.

الولوج في البلوغ: تقلبات مرحلة المراهقة

التقط الإغريق ببراعة تناقضات المراهقة، ووصفوا المراهق بأنه (الأحمق-العاقل)، ففي مرحلة المراهقة ينجرّ الأولاد في اتجاهات متناقضة وغير متوافقة، إنهم ممزقون بين هذه الاتجاهات المتصارعة؛ في هذا العمر يُتوقع من المراهقين أن يتحملوا مسؤوليات الكبار دون التحلي بامتيازات الكبار، يمكنهم أن يكونوا على مستوى عالٍ من الإدراك أكثر من البالغين، حتى فيما يتعلق بحياتهم، من دون التخلي عن ارتكاب تلك الحماقات الهائلة الناجمة عن حكمهم غير الصحيح.

وفي النهاية، ليس هدف مرحلة المراهقة الحصول على المهارات اللازمة للنجاح في عالم جماعي، بل الحصول أيضًا على شعور بالاستقلالية والتفرد. تقع على كاهل الأولاد مهمة فصل أنفسهم عن آبائهم مع الحفاظ

على علاقة وثيقة وحميمية معهم، لا شكَّ أنه وقت صعب ومربك، وللقيام بهذه المهمة ينتج المراهقون دماغاً جديداً، ولا أبالغ في هذا الوصف كثيراً! يبيّن علماء الأعصاب أنه وخلال سن البلوغ تقوم مجموعة جديدة كاملة من جينات الدماغ التي تكون صامتةً منذ الولادة، بتنمية عصبية جديدة، وتشذيب للأشجار العصبية القشرية في مستوى غير مسبق منذ النمو المبكر في الرحم، وبينما تُطوّر العُقد العصبية نفسها يستطيع الأولاد رؤية العالم بطرق فريدة ومثيرة للدهشة؛ لقد أظهرت الدراسات أن المراهقين الذين يُعرض عليهم صور وجوه ذات تعابير مختلفة، سيطلقون استنتاجات غريبة جداً (وغير صحيحة) عن الانفعالات التي يشعر بها الأشخاص في الصور، وبسبب هذه التصورات الغريبة للمحفّزات اليومية يعيش المراهقون بصورة ما في واقعٍ مختلفٍ عن الواقع الذي نعرفه، ولا يحدث هذا في سن المراهقة فقط. يستمر نمو الدماغ هذا بصورة جيدة في العشرينات، وهذا أمر مهم خصوصاً أنّ مجتمعنا قد مدد مرحلة المراهقة خارج سنوات الثانوية التقليدية.

كثيراً ما تكون مرحلة المراهقة وقتاً يُدفع الأطفال بها ليكونوا جديين، لكي (يتخلوا عن التصرفات الصببانية)، ويحضّروا أنفسهم لدخول عالم الكبار، وعليه؛ فإنّ حفاظ المراهقين على مرحهم، بما يتناسب مع سنهم، خلال توليهم هذه المسؤوليات، هي واحدة من أهم المهام الملقاة على عاتقهم في تلك المرحلة الصعبة.

لكن ماذا يعني هذا؟ هل بإمكان المرء البقاء مرحاً مع وجوب أداء الكثير من المهام؟ على الأولاد أن يُنْهَوْا وظائفهم المنزلية ومهامهم

الروتينية وبرامج الرياضة. لدى بعض الأولاد أعمال بعد المدرسة في كثير من العائلات، ومسؤوليات دينية، أو التزامات عائلية أخرى، وإذا ما سألنا بعض الأولاد هل يشعرون بالإرهاق، فسينظرون إلى هذه القائمة ويتذمرون قائلين: «بالله عليك انظر إلى كل هذا».

تدرك الكثير من العائلات مع اقتراب أولادهم من السن الجامعي حاجتهم إلى العمل بجد والإنجاز مع حاجتهم في الوقت نفسه إلى اللعب وإيجاد متعتهم الخاصة، وهذا ليس موضوعاً سهلاً أو بسيطاً لمعالجته. يشعر الآباء بالمسؤولية عن توفير أفضل فرص ممكنة لأطفالهم عن طريق تأمين تعليم جيد، ومساعدتهم على بناء سيرة ذاتية مثيرة للإعجاب في نهاية السنة الأولى للمدرسة الثانوية، وما سبق يعد معياراً لكثير من الأسر، على أن هذا النمط «عادي لكنه غير صحي»، حسب صديقي المرح الدكتور بوين وايت (Bowen White). لكن ما البدائل؟

أنصح بالسماح بالخيار الشخصي الموجه بحكمة بحيث يبدؤها طفلك، وهذا يكون بتوفير العديد من الفرص في البيئة المحيطة به مبكراً (يبدأ ذلك قبل المدرسة الثانوية بكثير)، وتشجيع أنماط اللعب المبكر التي تهض مباشرةً من الخيارات الطبيعية التي تظهرها طبيعة لعب طفلك المبكرة. لقد اكتشف والدا جيليان لين، الراقصة ومصممة الرقصات، موهبتها مبكراً (والتي بدت في البداية مشكلةً كبيرةً) وشجعوها. على الوالدين والمعلمين وقادة الشركات الاقتناع بالأدلة أن المهارات الحياتية طويلة الأمد، وشعور الإشباع المجزي والأداء الأمثل، هو نتاج الأنشطة المتعلقة باللعب أكثر منها نتاج الأداء القسري.

يأتي تمكّن المرء وبراعته مدى الحياة من بوصلة لعبه الداخلية، فعندما يضغط الآباء والمعلمون بشدّة على الأطفال لتحقيق إنجاز، فإنّ الأطفال لا يشعرون بالجدارة، ولا يحسون بكفاءتهم وقدراتهم الداخلية، وإذا كان مصدر الضغط للدخول في كلية رئيسة مهمة من الأبوين الطموحين أو الضغوط الاجتماعية أو الضرورة الاقتصادية للبقاء في مرتبة اجتماعية عالية، فستكون النتيجة تخلي أطفال المدرسة عن كل ما يسرّهم سعيًا خلف سيرة ذاتية مثالية.

كتب مايكل وينريب (Michael Winerip)، وهو خريج جامعة هارفارد، عن مقابلة متقدم شاب لامع إلى هارفارد مع لجنة القبول في الكلية، وعلى الرغم من معدله التراكمي البالغ 4.0، وعلامته العالية في اختبار الكفاءة الدراسية (SAT)، وعمله التطوعي في نزل محلي، وتخليه عن عطلة الصيف لتعليم القراءة في السجن المحلي، و..إلخ (بكلمات أخرى لديه سيرة ذاتية مثالية)، فإنّ من المحتمل عدم قبوله؛ بسبب كثرة المتقدمين (المثاليين). يعلم الوالدان هذا الأمر، ولذلك يجهدون ليكون طفلهم أكثر كمالاً، ومن ثمّ يصبح الضغط على هؤلاء الأطفال هائلاً.

وقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقالاً عن إحدى المدارس الثانوية التي يتجاوز فيها الأطفال وجبة الغداء من أجل تحقيق أقصى تحصيل أكاديمي لإضافته إلى أوراق اعتمادهم للقبول، وكما ورد في مجلة (Slate) الإلكترونية: «يفلح هؤلاء الذين يلعبون اللعبة بصورة مكثفة عادةً: إنّ الطفل الذين يأخذ خمسة عشر مقرر تعيين متقدم (AP courses)، ويعزف الكلارينت في ثلاث فرق موسيقية، ويدير معسكرًا للاجئين الكمبوديين في فصل الصيف، ويتحاشى وجبة الغداء طوال فصل الشتاء، لديه فرصة

أفضل حقاً للدخول في كلية أكثر من طفل يلعب بالكرة بعد المدرسة في أرض فارغة مجاورة».

يدل هذا على عدم التقدير الكافي للأنشطة التي تقوم على اللعب الحرّ وما تقدّمه من رضا على مدى الحياة. أقدم وعلى مدى اثني عشر عاماً ندوات عن اللعب، كل فصل خريف، لمجموعة مختارة مسبقاً من طلبة استانفورد، ويلى ذلك مشاركتهم في دورة الاندماج القيادي لمدة أسبوعين. لاحظت مدى إشراق هؤلاء الطلاب جميعاً، لكن مع ازدياد المنافسة على نيل القبول في استانفورد لاحظت أيضاً أنّ إحساسهم بالاستقلالية في انخفاضٍ متواصلٍ، وبدا لي أنّ مرحهم أقل عفويةً مما كان عليه عند الطلاب في السنوات الماضية. لقد بدوا وكأنّهم في طلب لمعلومات أكثر، مع توجه عام لديهم لإرضاء الأساتذة، وباستثناء قلة منهم، فإنّهم برأيي يعانون حرمان لعب مزمناً ذا درجة منخفضة، وإنّهم معتادون كثيراً على حياتهم المحمومة المليئة بالضغط والواجبات الكثيرة (على الرغم من أنّهم لا يزالون أطفالاً)، حتى إنّهم لا يعرفون ما فاتهم في سعيهم الحثيث نحو النجاح والتميّز الأكاديمي.

ربما اعتمد اتجاه صحيّ أفضل في مدرسة نابرفيل مقاطعة 203 (Naperville School District 203) في ولاية إيلينوي، وفي هذا المجال كتب جون راتي في كتابه الرائد الشرارة (Spark) عن تجربة فيل لولر (Phil Lawler)، وهو مدير التربية البدنية في إعدادية ماديسون (Madison Junior High School)، والذي بدأ بثورة في مفهوم المدرسة للتربية البدنية. يركّز النموذج المطوّر في نابرفيل

على التمارين الرياضية واللياقة البدنية مدى الحياة، لإعطاء الأطفال المهارات والخبرات اللازمة لعيش حياة نشطة بدنيًا؛ تعتمد المدرسة على نهج فردي، وتشجّع كل طالب على التقدم نحو أهدافه الخاصة فيما يتعلق بلياقته البدنية، وينخرط الطلاب في مجموعة متنوعة واسعة من أشكال اللعب الشاقة جسديًا، بما في ذلك الأنشطة والألعاب التقليدية، بالإضافة إلى تلك غير التقليدية مثل تسلق الجدران ومنصة الرقص (Dance Dance Revolution) ولعبة الفيديو التي تعتمد على المحاكاة التفاعلية من خلال دراجة ثابتة.

تُعد منظمة بي إي فور لايف (PE4life) منظمةً غير ربحية، متخصصة لتعزيز جودة التربية البدنية في مدارس الولايات المتحدة، وقد تبنت المنظمة منهج نابرفيل، وتقوم اليوم بتصديره من خلال إنشاء أكاديميات بي إي فور لايف في المدارس في جميع أنحاء البلاد، وهم يقدمون اللعب، بوساطة سماحهم باختيار الأنشطة، كبعد أساسي من أبعاد البرامج الأكاديمية. تفتح ثانوية نابرفيل مقاطعة 203 آفاقًا جديدةً من خلال الاستمرار في برامج المدارس المتوسطة، وتعديلها للأطفال الأكبر سنًا، وقد تحسّن الأداء الأكاديمي بصورة ملحوظة مع تحسّن اللياقة البدنية، وينطبق الأمر نفسه على فيل لولر الذي بدأ بتقديم اللياقة البدنية القلبية والوعائية حتى لغير الرياضيين، وقد فوجئ بتحسّن علامات الأطفال. ومع بدء تراكم النجاحات الصحية والأكاديمية أدخلت أنشطة مرحة أخرى، وجلّها يعتمد على الحركة المكثفة، ومن ضمنها الرقص الرباعي.

وبدلاً من حشو سيرهم الذاتية بمزيد من الدورات الأكاديمية ونبذ التربية البدنية، قامت نابريفيل برأيي بدمج النشاط البدني مع اللعب والنشاط الأكاديمي. تُعد مراقبة اللياقة القلبية عنصراً رئيساً في هذه البرامج، وهناك أدلة قاطعة أنه من خلال السماح للأطفال باختيار نشاطهم (يجب أن يكون تمريناً رياضياً قاسياً) يلهو الأطفال ويطورون أجسامهم ووظائف دماغهم.

أعتقد أنه من المهم بمكان أن يكون لدى الأطفال وجهة نظرهم الخاصة، ومن المهم أن يدركوا أهمية توليهم لمسؤولياتهم وحصولهم على درجات جيدة في المدرسة وغيرها من واجبات المراهقين، لكن هذه الأمور ليست بداية الحياة ولا نهايتها. وبصورة أشبه بالمفارقات يمكن النظر إلى هذه الاعتبارات على أنها مهمة وغير مهمة! فأن يكون لدينا ذلك الهامش والحس الساخر، هو ما يجعلنا نتجاوز الأوقات الصعبة، ويمكن للبالغين تبني هذه المواصفات وتحسين حياتهم بهذه الطريقة.

وعندما أقول (حس ساخر) فإنني لا أقصد سخرية الاستخفاف، التي تأتي من وجهة نظر قائمة للعالم، إنما ذلك النوع التهكمي الذي يتيح للأطفال أن يضحكوا على أنفسهم و(في أحوال كثيرة) على العالم السخيف الذي يحيون به، وكلما رأيت طفلاً يمتلك حساً ساخرًا عاليًا أقول في نفسي: «ستكون أمور هذا الطفل على الأرجح على خير ما يرام». إن امتلاكنا لموقف مرح من الحياة - دون أن نأخذ على محمل الجد التام كل الأمور الرائجة؛ مثل الشعبية أو التنافس الأكاديمي أو انتقاد الكبار - هو الأساس، وأن نراعي في الوقت نفسه ضرورات النمو والبقاء ضمن

حدود القانون وعدم الانجراف في الأخطار المفرطة، وتجنّب الإدمان وغيرها. سأنصح بكتاب نادر لكنه كلاسيكي، وهو كوميديا البقاء على قيد الحياة (The Comedy of Survival) لكتابه جوزيف ميكر (Joseph Meeker)، تتبع كلاسيكية النص من توجيهه المراهقين (والبالغين) إلى عالم غير مثالي.

كان أحد التمارين العظيمة التي اعتدت على استخدامها مع الأطفال والكبار هو طلبي منهم تصوّر حياتهم بعد خمس أو عشر سنوات في المستقبل، شرط عدم التركيز على طموحهم إلى أن يكونوا محامين أو أغنياء، بل يظنون أنّ القيام به سيجعلهم سعداء ومتحمسين، وهذا بحد ذاته نوع من اللعب التخيليّ، وهو يسمح للناس بأن يخطوا خطوةً خارج عالمهم الروتيني اليومي، وإلقاء نظرة أوسع، إضافة إلى أنّه يتيح لهم رؤية أوضح لما يريدونه فعلاً من حياتهم، والتركيز على تلك العناصر التي تخرج بصدق من داخل النفس أكثر مما يرسمه لهم العالم المحيط، وعندما يمتلك الناس هذا النوع من الرؤية فسيتكفون من التحرك بهذا الاتجاه وتحويله إلى حقيقة.

أعتقد أنّه يجب عدم اتخاذ وجهة نظر حادة تجاه أي رؤية معيّنة، فكما هي الحال في أي نشاط لعب؛ يحتاج الناس إلى الانفتاح على الارتجال وموهبة اكتشاف الصدف الطيبة. تذكر أنّ هذا التمرين لا يهدف إلى وضع خطة خمسية أو عشرية للتنمية الشخصية، إنما يهدف إلى معرفة من نكون، وما المستقبل المناسب لنا من الداخل، إذ إنّ مصلحتنا وأشطتنا المعجزية تأتي على قدميها عندما نفتح أذرعنا لاستقبالها. إنّ وضع الأهداف أمر جيد، لكن السعي الحثيث المبالغ به تجاه تلك الأهداف

يمكن له أن يمنع النمو والتفاهم، وبعد اكتشاف ما يروق لدواخلنا سيكون لمشاعرنا أو لتلك الانفعالات التي تتردد أصدائها في داخلنا أن تجد طريقها الواقعي للتحقق.

ترك بيل غيتس (Bill Gates) جامعة هارفارد لأنه عشق الحواسيب، أما نيت جونز (Nate Jones) الذي أظهر أهمية اللعب اليدوي لمختبر الدفع النفاث فهو عاشق كبير للسيارات، وأدركت أوبرا (Oprah) مواهبها وعملت على تميمتها، وقد تخيل نجم البيسبول المعتزل أوزي سميث (Ozzie Smith) نفسه بين النجوم الكبار وهو طفل يرمي الكرات نحو السقف ليطاردها في أثناء هبوطها؛ هذه هي الخيارات المشحونة من الداخل وليست خطأً مدروسةً لعشر سنوات قادمة.

ومع أيّ أعتقد أنّ الرياضة والأنشطة المنظمة من قبل البالغين مبالغ فيها نوعاً ما، فإنّه يمكن للرياضة أن تكون تدريباً فاعلاً لحياةٍ مرحةٍ خلال سنوات المراهقة، تمنحنا الرياضة مجموعة أقران جاهزة لها الهدف نفسه، وتعلّمنا الرياضة أيضاً كيفية تحدي الصعوبات حتى عندما يبدو لنا أنّها لا تُقهر، ولا ينبغي للرياضة المنظمة من قبل البالغين أن تكون معاديةً للعب إذا ما نفذت بصرامة.

عندما أفكر في البرامج الرياضية النموذجية، أتذكر دومًا المدرب غاري أفيشيوس (Gary Avischious) الذي درّب الهوكي للأطفال من ست سنوات إلى تسع، يختار غاري فريقه ويضع أفراده معاً بصورة عشوائية، فهو لا يوظفهم لمواهبهم، وبذلك يحصل على مزيج حقيقي لقدراتهم، ولا يبدأ مع الأطفال بالألعاب إنما بالزلاجات، بيدؤون بالتزلج

على الأرصفة ومواقف السيارات الفارغة في جميع أنحاء المدينة مع عصي الهوكي فوق رؤوسهم، ويقودهم للتزلج على عشب التلة، فلا يصاب أحد من الأطفال بأذى إن سقط، وبذلك فهم يستمتعون، ويتعلمون التزلج حول الأشياء والتزلج نحو الخلف، ما يتيح لهم بناء مهاراتهم، ويسمح لغاري بغرس الشعور بالمسؤولية في الأطفال، والتركيز على من يحتاج إلى مساعدة إضافية منهم، فضلاً عن أنهم يقومون بالتمارين التي تجعل الأطفال يتحدون بوصفهم فريقاً واحداً.

عندما يصلون أخيراً إلى الحلبة لا يستخدمون قرص الهوكي، بل كرة قدم صغيرة، يستحيل التحكم فيها، وهو ما يجعلهم يمررونها باستمرار بينهم دون أن يشعروا بالخجل من إضاعته. وعندما يستخدمون قرص الهوكي فيسكونون أكثر اعتياداً على تمريره، وسيجدون التعامل معه والتحكم فيه أسهل بكثير من الكرة، إذ إن المطلوب منهم هو التمرير والتمرير والتمرير لمرات عدّة قبل محاولة التسديد إلى المرمى خلال اللعبة المحتمة، وبهذه الطريقة من التدريب يعلم الأطفال أن كل ما سيحصلون عليه من مدربهم هو ردة فعل إيجابية، وعندما يأتي الوقت المناسب للانخراط في مباريات فعلية يكونون قد تعلموا كيفية العمل معاً كفريق واحد بكل مهارة وطاقمة مطلوبة، ويتطلعون قدماً نحو متعة المنافسة، وبهذا الأسلوب لا تكون النجومية هي مقياس الاحترام المتبادل، إنما إدراك الفرد منهم لتطور مهاراته الشخصية.

وكانت النتيجة هي فوز فريق غاري في بطولة منطقتهم ثلاث عشرة مرة في السنوات الخمس عشرة الماضية، لكن الأهم من هذا؛ من الفوز أو

الخسارة، هو حبّ الأطفال للعب. وقد ذهبْتُ إلى مأدبة بعد مباراة البطولة النهائية في إحدى السنوات التي لم يربح فيها الفريق الكأس، وكان الفريق الفائز بالبطولة وفريق غاري يجلسون على طاولات متجاورة، ولاحظت التناقض الكبير بين الفريقين المتجاورين؛ فبينما كان فريق غاري يستمتع كثيراً بوقته، يضحكون ويمزحون، اتسم الفريق الآخر بالهدوء والجدية الظاهرة، ولم يبدُ على مظهر أعضائه الاستمتاع بفوزهم في البطولة، وكان المدرب الفائز جدياً جداً بالنسبة إلى عمر مجموعته، مرتدياً ربطة عنق بصورة دائمة، متحدثاً بصورة جدية جداً، يدير فريقه من خلال المهارات والتدريب المستمر. صحيح أنهم كانوا الفائزين لكن أي شخص ينظر إلى الفريقين سيظن أن أطفال غاري هم الأبطال المنتصرون، وبالفعل عندما جاء النادل إلى فريق غاري، سألهم عن شعورهم إثر فوزهم باللقب، وأجابوه بسعادة أنهم قد فقدوه.

توفر الألعاب الرياضية للمرء معرفته بمواهبه الجسدية الكامنة، وتدفع للمس شعور المشاركة والفوز والخسارة وكذلك أن يكون منصفاً. ولأن المسابقات الرياضية ألعاب، ولأن نتائجها لا تؤثر مادياً (يجب ألا تؤثر) في رفاها فإنها تعطينا فكرة عن صراعات أخرى موجودة في حياتنا، ولذلك لا عجب أن مجتمعنا مهووس بالرياضة.

قام الرئيس السابق لجامعة برينستون (Princeton University) ويليام بوين (William Bowen) بدراسة إحصائية كبيرة لمعرفة هل كانت الأولويات الخاصة التي يحصل بموجبها الرياضيون على القبول في الجامعات غير عادلة (نقاط أقل في اختبار الكفاءة الدراسية أو مساعدة مالية إضافية)، وقد فوجئ بوين عندما وجد أن أداء الرياضيين المالي

أفضل من بقية الطلاب بعد الدراسة، وقد عزا هذه الحقيقة إلى الدافع والطاقة التي تصقلها الرياضة في الإنسان، وقد أظهرت دراسات أخرى صحة عقلية أفضل لاحقاً في الحياة بين أولئك الطلاب الجامعيين الذين شاركوا في الألعاب الرياضية (ليس من الضرورة أن تكون المشاركة في مستوى ناد أو منتخب رياضي ممثل لجامعة).

وعلى الرغم من أننا في مجتمعنا غالباً ما نركز على الرياضة بوصفها أمراً أساسياً ونشاطاً جماعياً بناءً في مرحلة الطفولة، فإنّ هناك العديد من المجالات الأخرى التي تمكّن المراهقين من العمل ضمن مجموعة أقران بناءً، مثل الخطابة والنقاش والدراما ونادي الرياضيات والفن والفرق الموسيقية والأوركسترا، وهي جميعاً تشكّل منتدى للعب والاستكشاف بين مجموعات الأطفال المتقاربة في التفكير.

كانت نوادي الحاسوب المقامة في المنازل على قدر من الأهمية منذ ثلاثين عاماً، وتحتل الآن تكنولوجيا الروبوتات اهتمام الأطفال في وادي السليكون (لا تُصدق المسابقات هناك)، وهو مثال آخر على أنّ ألعاب اليوم هي تكنولوجيا الغد.

التحوّل من طفل إلى بالغ

تستلزم طقوس العبور في مرحلة التحوّل من المراهقة إلى البلوغ تغييرات معيَّنة، وتنطوي طقوس العبور على شعور المرء بذاته التي تجلب معها شعوراً بالثقة. تتضمن تلك الطقوس كسر النمط المعتاد، وتحديد المرء مساره الخاص، ومواجهة المصاعب التي تعترض طريقه، وتقديم هدية للمجتمع. وفي الأساطير لا يعود البطل أكثر نضجاً وقوةً فحسب، بل

يجلب معه شيئاً جديداً سيعود بالنفع على المجتمع، وهذه هي الحال طوال التاريخ البشري، هذا ما يحدث في الواقع كما في القصص والأساطير.

لم تتضمن طقوس عبوري أي تنانين (جمع تنين)، لكنها كانت تعج بالتحديات، فقد حصلتُ على عمل في عمر الخامسة عشرة لتسليم البقالة في حي فقير جداً في الجانب الجنوبي من شيكاغو. كان والداي يعلمان أنني أعلم لدى بقال عمله مزدهر يعيش في شارعنا، لكنهما لم يعلما شيئاً عن تفاصيل عملي؛ ففي عطلات نهاية الأسبوع، وفي منطقة مختلطة الأعراق مكونة من مبانٍ سكنية ذات أربعة طوابق، كنت أقوم بتسليم صناديق ضخمة من الخضراوات والفواكه إلى عائلات كبيرة جداً تقطن غالباً في الطوابق العليا (لا مصاعد ولا تدفئة)، وكانت الصنفقة تقوم على التوصيل المجاني للعملاء في حال شرائهم كميات كبيرة من البقال، وكان واجبي إيصال البقالة إلى الشقق المزدهمة ذات الرائحة الكريهة جداً، حيث عاشت شريحة فقيرة جداً من مجتمع شيكاغو بعد الحرب. كان هناك العجزة المحتضرون، والرجال المعوقون خلقياً، ومدمنو الكحول، والمقعدون، والكثيرون من القادمين الجدد إلى شيكاغو من كل مكان، وجلّهم من الفقراء القلقين من أي نقص في إمدادات البقالة أسبوعياً أو كل أسبوعين، كانوا يتأكدون من الأغراض كلها بدقة وبعقلية أمومية، وإذا ما كسرت بيضة كانت مأساةً مشتركة! لقد أمضيت أياماً طوياً أناضل للوصول إلى شققهم في الطوابق العلوية.

لم أكن على دراية قبل هذا العمل بأنّ هناك من يعيش هكذا، وكان هذا في كثيرٍ من الأحيان الجزء الأخطر من المدينة، وهي الحقيقة التي

لم أواجه بسببها حادثاً بصورة ما (أنا الفارس الشاب الأحمق)، لكنني اكتشفت أنني أملك من القوة ما يكفي لحمل صناديق مع أكياس مقدسة عليها على تلك الأدراج الضيقة والمظلمة. لقد تعاملت لساعات مع متاعب مواقف السيارات، وتحدثت إلى الشرطة كثيراً لعدم امتلاكي تذاكر، وأحبطت محاولات سرقة سيارة المالك من نوع مركري (Mercury)، أو سرقة لفة الأموال المتزايدة (كان تسليم البقالة نقدياً).

لقد فتّحت هذه التجربة عينيّ وغيرتني، إذ وجدت أنني قادر على التعامل مع نفسي في الظروف الصعبة والخطرة، وبالتأكيد ألقى نظرة إلى الخلف الآن وأرى بوضوح أنني لم أكن أعني مدى خطورة هذا العمل، ولو علم والداي آنذاك لما سمحوا به، لكنني أظن أنّ آباء ذلك الوقت لم يكونوا دفاعيين كمن يتمتع بالمسؤولية من آباء اليوم. وأنا إذ أنظر اليوم من خلال عدسة سنوات عديدة من الخبرة الشخصية، فإنني أعترف أنّه كان توقيتاً جيداً لي لإدراك عالمنا وما يحيط بنا من آلام وأحزان. وعلى الرغم من أنني كنت مجرد صبي في المدرسة الثانوية أقوم بتوصيل طلبات البقالة في الأحياء الفقيرة، فقد حرّضت تلك المغامرة عندي أن أقوم بشيء أهم في حياتي من مجرد تحسين مهارات القيادة لدي، لذلك فإنّ طقوس العبور هذه مثيرة ومفيدة ومرحة بالعموم، وهي مستمرة اليوم بالشغف الذي أشعر به وأنا أنقل الصورة الموسعة للعب كهديّة للآخرين من خلال هذا الكتاب.

بالنسبة إلينا جميعاً؛ (إنّ دخول الغابة حيث لا يوجد مسار)، واكتشاف طريقنا، هو جزء أساسي من تجربة التحوّل.

يُعد برنامج أوتورد بوند (Outward Bound) مثالاً جيداً عن البرنامج الذي يحتوي على أخطار حقيقية لكنها تحت السيطرة، وتبدو الأخطار أكبر بكثير بالنسبة إلى المشاركين من القادة، وقد رأيت كيف يمكن لمثل طقوس العبور هذه أن تحوّل الأطفال.

أحد أولئك الشباب الصغار هو ابن أحد أصدقائي، ويبلغ من العمر ستة عشر عاماً، وهو يشكّل مصدر قلق حقيقي لوالديه الجيدين لكن المحبطين. كان هاري ذكياً جداً، على أنه يمضي الكثير من الوقت في مشاهدة التلفاز والانشغال بالموضوعات المظلمة في ألعاب الفيديو، علاوة على أنه مشدود إلى الأدب الوجودي الثقيل، لكنه وبصورة واضحة كان عالماً في يفاعته. وفي تلك الأوقات كنت نشطاً في هيئة أوتورد بوند، وعلى علم بأن البرنامج سينطلق في جبل ولاية كارولينا الشمالية بقيادة جيدة وصارمة وأمنة في الوقت نفسه، لذلك كانت نصيحتي لوالدي هاري تسجيل هاري فيه، وهذا ما حصل (مع مقاومة خفيفة من جانبه).

وبعد الإفطار توجهت مجموعة مختلطة من عشر مدن بعمر السادسة عشرة إلى المخيم البعيد. كانوا يحملون أمتعة ثقيلة مع الماء لكن من دون طعام، وفي الساعة العاشرة صباحاً توقف هاري، منهكاً وجائعاً، وطلب طعاماً، إلا أن القائد قال: «في وقت لاحق، انتظر أكثر»، لقد كانت هذه المرة الأولى التي لم يكن فيها هاري قادراً على تناول وجبة خفيفة عند الجوع. كان يوماً طويلاً، وغزا الإنهاك الشديد المجموعة، لكن في حدود الساعة الرابعة بعد الظهر وصلوا المعسكر تعبين وجائعين للغاية، وصاح القائد: «هذا هو العشاء، أشعلوا ناراً واطبخوه». وهنا انتزعت حقيبة

مخبأة مسبقاً مليئة بالدجاج الحيّ، وكيس من البطاطا، وتم وضعها أمام المجموعة، تلا ذلك حالة من الفوضى؛ إذ إنّه لم يكن هناك من لديه أدنى فكرة عن كيفية ذبح دجاجة حيّة وإعداد طعام منها. وقرابة الساعة السابعة مساءً كان الدجاج المنتوف يُشوى على النار وتناولت المجموعة الجائعة طعامها.

استمرت هذه الجولة من أوتورد بوند مع مهام غير متوقعة وصعبة (لكنها قابلة للتنفيذ) مدة ثلاثة أسابيع ونصف، وانتهت بالمشي والجري ثمانية أميال. لقد نجح هاري في المهمة، وأنهى تجربته بصورة جديدة واثقة عن نفسه، ولم ينظر إلى الخلف أبداً. وهو الآن طالب طب ورياضي محنك، لقد تم تحويله! وهو يقدر تلك المغامرة الموجهة والتدخل المباشر في الطبيعة والتي بدأت بصورة قاسية لكنها ممتعة، وفتحت له أبواب النجاح في بلوغه المبكر.

لا يسمح بعض الآباء لأطفالهم بالاستقلالية المطلوبة لهم لتعلم الاعتماد على الذات، لقد رأيت الكثير من الآباء والأمهات الذين لا يزالون يكتبون بحوث أطفالهم، وأطفالهم هؤلاء في الجامعات! يتخرج بعض الأبناء بامتياز في الجامعات، لكنهم ضائعون وحائرون، فهم لا يعلمون أنفسهم بحق، لأنهم لم ينالوا الفرصة ليتعرفوا أنفسهم، وهم جيّدون بالتعامل مع الناس لأنهم يعرفون كيف يرضونهم، ويحبهم رؤسائهم ومدرسوهم السابقون كثيرًا، لكنهم يشعرون بفراغ وعدم اكتمال في دواخلهم.

هناك تحوّل واحد نهائي محتمل للمراهقة، لكنه لا يحصل للأطفال فحسب. يراعي الكثير من الآباء ويتأكدون من توازن الوجبات، وأنّ الوظائف

المدرسية قد أنهيت، يحاولون جاهدين تعليم المسؤولية والكرم، الصواب والخطأ، لكن هناك أوقات نتجاوز بها معرفة ما يهم فعلاً في الحياة، إلى كيفية النظر في عيني أحدهم ومصافحته بثقة، وكيفية امتلاك رؤية للأمور ووضع الأهداف بوضوح، والانضباط لتحقيقها، وبينما نبغ نحن البالغين هذه الأمور للأطفال نحصل في بعض الأحيان على لمحة عن أفضل ما في أنفسنا، وكيف لنا أن نعيش حياتنا بصورة أفضل.

إن أحد أوجه الفرح والألم في كون المرء أحد الوالدين هو رؤية آبائنا في أنفسنا، ورؤية الأوجه الجيدة بهم والعيوب التي نكرها بصوتنا. تأتي الأفراح والآلام أيضاً من رؤية أنفسنا في أطفالنا، وتذكر أيامنا السعيدة وصدماتنا المؤلمة منعكسة في تجربتهم، إذا لم نكن أنانيين أو جديين جداً، فسيكون بمقدورنا القيام بما هو أفضل لمساعدة أطفالنا في أن يكونوا أكثر مرحاً، كمساعدة أنفسنا في تذكر كيفية اللعب.

إن انفتاحنا على بعض التقييم الذاتي لأنفسنا، والتمسك بروح خفيفة مرحة فيما يخص فرص حياتنا، يعني أننا سنجد ببساطة وسيلةً للعب.

